الحقوق كافة محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

www.awu-dam.org

❑❑

منذر عبد الحر

زائـرُ المـاء

-- روايـــة --

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2005

من أعالي الجنونْ
نزلت للفراتِ الغصونْ
سقطت نجمةٌ في المياه
فهبَّ لها الفتيةُ العاشقون
***

في أعالي الجنونْ
نحتفي بالشجَن
لا نرى...
غيرَ أوجاعِنا
في رِهانِ الزمنْ
بابُنا الأغنياتِ
لاصطيادِ المِحنْ
***

قلّبتنا الرياح
زورقاً... زورقاً
كي نَرُدَّ الأسى
طائعاً للعيونْ

في أعالي الجنونْ!
كم تعلَّمَ
حتّى صارَ يُصغي لغيرِهِ؟
كم تمرَّدَ على ألمِهِ
الذي ازداد نموّاً
وكَثُرَ زوّارُ ينابيعِهِ؟
ثمَّةَ قيودٌ لم يتجنّبها
ولم تترك لهُ غيرَ رسالةٍ باردةٍ
قدَرُهُ أن يظلَّ بعيداً عن نهرِهِ
ذلك الذي دلَّهُ على سرِّهِ المبكّر
بينَ الغرقِ
وأنينِ الزوارقِ
وأكواخِ الدرسِ الأوّلِ
كم تعلَّمَ...
وهو يخرجُ من واحتِهِ
ويدخلُ إلى غابةٍ من العربات؟
كم حفظَ زهوراً،
وفراشاتٍ
في حقيبتِهِ الصغيرة؟
كم أهملَ مُدُناً وشوارعَ؟
لم يطرق باباً
رغمَ اكتظاظِ الليلِ،
كم خطوةٍ نسجَ ليظلَّ وحيداً؟!

***

- 1 -

صارت ملامحُهُ مألوفةً، وانتظمت زياراتُهُ لي، وأخذَ حديثُهُ يطولُ دونَ أن أجدَ مفتاحاً للغزِ صمتي أمامَهُ...

ليلةَ أمس جاءني على ظهر جواد، كأنه قد قطعَ مسافةً طويلةً ليصلَ بعدَ ستة أشهرٍ من آخر لقاءٍ بيننا...

تحدَّثَ لي عن بعضٍ من أعمالي اليوميةِ خلالَ هذهِ الفترة... وقدَّم لي نصائحه بلغةٍ مقتضبةٍ ذات رموزٍ تعلّمتُ أن أفكَّ شفراتها، وأحسستُ بعدَ غيابِهِ بأنّهُ قريبٌ منّي وهو في كلِّ مكانٍ أذهبُ إليهِ... يراقبني، ويرصدُ ما أقومُ بهِ من أفعال.

كيفَ لي أن أؤطِّرَ حياتي بطوقٍ من الرقابةِ الغريبةِ؟ كيفَ أتعاملُ مع سِرٍّ يتجسَّدُ لي بكاملِ الهيبةِ كلَّ ستةِ أشهرٍ؟

أراهُ... بلحيتِهِ البيضاء، وبشرتِهِ اللمّاعةِ وقوامِهِ الممشوق وعقالِهِ الأنيق وكوفيتِهِ المرقطة وعينيه الصارمتين وملابسِهِ التي تدلُّ على الوقارِ والهيبة...

أجمعُ لهُ عشراتِ الأسئلة، وحينَ يطلُّ أجدُني عاجزاً عن قولِ أيِّ حرفٍ...

وإذ تأخذُني الحيرةُ أعودُ لتأمُّلِ اليومِ الأوّلِ لتعرُّفي بهِ، في نهايةِ تلكَ الليلة الطويلة الأعسر في حياتي كُلِّها...

... مئاتُ الجثث على مدِّ البصر... وضجيجُ الزاحفين من الجنوبِ إلى الشمال، الطائراتَ فوقنا... والقذائفُ المتنوّعة على الأرضَ الموحلةِ، بعضُها ميتٌ مكفهِر... امتزجت الدماء بالطينِ... بالأثّاتِ والحشرجاتِ ولهاثِ الناجين . حتى تلك اللحظةِ . من النار.

كنتُ متوجّهاً صوبَ الجنوبِ... إلى البصرةِ حيثُ سكن أهلي، بعدَ ليلةٍ من الصراعِ الغريبِ مع الموت، الذي رأيتُهُ مرّاتٍ على هيئةِ شخصٍ بشعٍ يضحكُ منّي وأنا أزوغُ عنهُ بأعجوبةٍ، والطريقُ بينَ القرنةِ والبصرةِ مزروعٌ بخطواتِ هذا الكائن الغريب . الموت . الذي يتجوَّلُ بزهوٍ وحريّةٍ لا يستطيع أحدٌ الحدَّ منها!...

عندَ الفجرِ... وقربَ آخرِ جسرٍ حيٍّ قبلَ البصرة، فاجأني رجلٌ وكأنهُ آتٍ لتوِّهِ من مجلسٍ رفيعِ المستوى... وكانَ الشيءُ المنتظمُ الوحيد في الفوضى التي تعمُّ الأشياءَ حولَنا قال لي:

. الله يساعدك ابني...

أجبتُهُ بالكاد:

. الله يساعدك عمّي!

. يبدو أنك قضيتَ ليلةً طويلةً من الإرهاقِ والمعاناةِ والجوع؟

. نعم واللهِ يا حاج!

. حرامٌ يا بنيَّ أن تقودَ نفسَكَ للموتِ على هذا الجسر.

وأشار بيدهِ إلى الجسرِ النائم قريباً مِنّا.

ماذا أفعلُ يا حاج؟ إنها القسمةُ!

. تعال إلى بيتي ذي البابِ الأزرق ذاك واسترح قليلاً ريثما تهدأ الأجواء.

ذهبنا معاً، لم أفكّر تلكَ اللحظةَ بأيِّ شيءٍ سوى الابتعادِ عن هذا الجوِّ الخانق والاسترخاء قليلاً، وربما الحصول على قطعةِ خبزٍ وقليلٍ من الماءِ العذبِ أسدُّ بهِ رمقَ الجوعِ والعطش الذين صارَ مداهما يومين داميين...

وصلنا البيت... دفعَ بيدِهِ الباب، واجهتنا صالةُ استقبالٍ مهملةٍ تراكمت فيها

الأنقاض...

قال الرجل:

سنجلسُ في المطبخ، لأنَّه أكثر استعداداً لاستقبالنا!

ذهبنا إلى المطبخ المتواضع، أخرجَ الطبّاخ النفطي الصغير "الجولة" من بين حاجياتٍ قليلةٍ ركنها في إحدى الزوايا، أشعلَ (الجولة) ووضعَ المقلاةَ عليها مع قليلٍ من الزيتِ وقطّعَ رأسَي طماطم وبدأ بإعدادِ وجبةٍ من الطعام شعرتُ وأنا أتناولهُ بعد أن قدَّم لي المقلاة بمحتوياتها مع رغيفِ خبزٍ بأنّهُ أثمن شيءٍ قُدِّمَ لي في حياتي، قال لي بممازحة:

. هذهِ الوجبةُ البسيطةُ هي حصتُكَ يا بني فلا تطمع بالمزيد... واطمئن فإنَّ لديك قدحاً من الشاي سأقدِّمُهُ إليكَ حالَ انتهائك من الأكل...

أجبتُهُ بجدّيةٍ:

هذا كثيرٌ يا حاج!

بعد أن أنهيتُ وجبتي الغالية، شكرته لكي أكملَ مشواري، فقالَ معترضاً:

ـ ابقَ معي حتّى الساعة الثامنة صباحاً، لأنني سمعتُ من المذياع بأنَّ الحربَ ستتوقفُ عند هذا الوقت... اخلع حذاءكَ يا بني واسترحِ قليلاً...

فعلتُ ما أرادَ... وشعرتُ بالحياةِ للمرّةِ الأولى حينَ أصغينا معاً لصوتِ تحطُّمِ الجسرِ القريب، إثر قصفِ الطائرات الوحشيّ المتواصلَ، الذي كنتُ سأهشَّمُ تحتهُ لولا تدخُلُ الرجلِ واصطحابه لي إلى بيتِهِ...

في الثامنة صباحاً قال لي بودٍّ أبويٍّ:

. اذهب الآن يا بنيَّ، فقد كُتِبت لك السلامة...

لم أستطع حينَها السيطرةَ على دموعي التي نزلت فجأةً، وحينَ هممتُ بالحديث معَهُ، وضعَ يدَهُ على فمي وقال:

. لا تَقُل شيئاً... إن جزائي عند الله تعالى...

مع السلامة...

خرجتُ من البيت، وأغلقَ عليهِ الباب، وقفتُ قريباً لأحفظَ ملامحَ المكانِ جيّداً...

وأكملت خطواتي بخفّةِ منتصرٍ صوبَ مدينتي لأنضمَّ إلى أهلي وأروي لهم ما حدثَ باستغرابٍ ودهشة.

- 2 -

قادتني حيرتي إلى الصمتِ وعدمِ إرهاق ذهني بأسئلةٍ متشظّيّة،... وقرّرتُ تركَ الأمرِ بلا تعليقاتٍ لكي لا أذهبَ إلى تأويلاتٍ تقودني إلى مناطق محظورةٍ في العقل!

هي مُصادفةٌ على أيَّةِ حالٍ، ربّما توهّمتُ فيها تفاصيلَ لم تحدث لفرطِ إرهاقي ويأسي وأنا أغرقُ في ظلامِ تلكَ الليلة...

ربَّما نمتُ في لحظةٍ ما وجرى ما جرى في فسحةٍ من حلمٍ... أو وهمٍ ما... غفوتُ بعدَ سلسلةٍ من التساؤلات... و...

ـ هاأنذا يا بُنيَّ... أعلمُ أنّكَ سعيتَ لتراني، وتقدّمَ لي هديةً نجاتِكَ... أشكرُ سعيَكَ هذا، ولا حاجة لي بالهدية، كما أخبرتُكَ... ولا تتعب نفسَكَ في البحثِ عنّي... أنا الذي أزورُكَ!

واختفى... صحوتُ هلِعاً، يا لهُ من حلمٍ غريبٍ، إنهُ ثانيةً، وهاهي الدهشةُ قد أخرست لساني أمامَه...

تذكّرتُ إجازتي الأولى . بعدَ الحادثةَ . وذهابي إلى بيتِهِ الذي حدّدتُهُ جيّداً، البابُ الأزرقُ الصارخُ بوجهِ الشارع، والسياج الواطئ، وغرفة الاستقبال المهملة... والمطبخ... وأغلى وجبةِ طعامٍ...

رأيتُ البابَ الأزرقَ يئنُّ من العزلةِ وقد رُبطَ بقسوةٍ بسلسلةٍ حديديّةٍ صدئة، طرقتُ بابَ البيتِ المجاور، فأطلَّ عليَّ وجهٌ شاحبٌ لرجلٍ أهملَ كُلَّ شيءٍ في وجهِهِ إلا تعبيرات قلقهِ من طرقات القادم!... وقد بزغَ خلفَهُ وجهُ امرأةٍ تبدو وقد أنهت لتوِّها فصلاً من البكاء...

ألقيتُ عليهما التحيّة... فردّا عليَّ بارتباكٍ... وسألتهما عن جارِهما صاحب البيت ذي الباب الأزرق...

استغرب الرجلُ كلامي، وأدار وجهَهُ لامرأتِهِ ليقدِّما تعبيراً مشتركاً عن الدهشةِ...

أجابني بشرودٍ: هذا البيتُ متروكٌ منذُ أربعِ سنواتٍ، ولا يوجدُ شخصٌ بالمواصفات التي أشرتَ إليها!

أجبتُهُ بانفعالٍ: ولكنني دخلتُ معَهُ البيتَ، وجلسنا في المطبخ، و و و....

أجابني: لقد توهّمتَ يا بنيَّ! فاذهب من حيث أتيت ولا تتعب نفسَكَ بمثلِ هذهِ الأسئلة...

عُدت حقاً إلى إشاراتِ ذلك اليوم الذي أفضى إلى تلك الليلةِ التي أدّت إلى الرجلِ الغريب...

بدأ الصباحُ باستغاثةٍ، أخرجت رؤوسَ أفرادِ وحدتنا من ملاجئها... سقطت قذيفة على أحدِ الملاجئ واستشهد السبعةُ الذين يقطنونَهُ...

ثمَّ هدأنا جميعاً نترقَّب ما سيأتي، زحفَ إليَّ "عصام" الجندي الخجول الذي يعملُ في "قلمِ" وحدتنا ويسكنُ معي في الملجأ، قال لي بشيءٍ من التوسُّلِ: أشعرُ بالحمّى والتعب، وجلبُ الماء هذا الصباح واجبٌ عليَّ... فأعنّي يا صديقي وتكفّل بالواجبِ عنّي... نهضتُ دونَ تردُّدٍ، وأخذتُ "الجلكانين" وغادرت الملجأ... وحدتُنا تقعُ في منطقة "الشافي" بين منطقتي "الدير" و"القرنة" في أرضٍ زراعيّةٍ رطبةٍ قريبةً من النهر، يحيطُ بنا "المعدان" الذين يمتلكون مئات الثيران والجواميس، تمشيتُ إلى النهرِ منتشياً بدفءِ الشمسِ، وهدوءِ المكان الذي أعقبَ نوبةً من القصفِ الوحشي...

وصلتُ النهرَ ووقفتُ على جذعِ نخلةٍ مقطوعٍ يمثّلُ دكّةً نستندُ عليها لإملاء

الأوانـي مـن جـرفِ النهـر... وحـين هممـتُ بـإملاءِ "الجلكـان" الأوّل... هجمـت طـائراتُ العـدوِّ ثانيـةً، وصـرتُ مكشـوفاً فركضـتُ إلـى زورقٍ قريـبٍ مقلـوبِ علـى الشاطئ واختبأتُ تحتهُ، علّني أتخلّصُ من جنونِ الطائرات التي عاودت الهجومَ على وحدتِنا وإمطارها بالقذائف...

وبعد أداءِ نوبةِ القصفِ هذهِ انسحبت الطائرات وهدأ المكانُ هدوءاً مرعباً..

عدتُ إلـى النهـرُ ومـلأت "الجلكـانين" وإحسـاسٌ بـالقلقِ يـأكلني حـولَ مصـير رفاقي الذين تلقّوا مطرَ الطائرات...

عند عودتي المتردّدة خشيةَ مفاجأةٍ غير سارّةٍ توقّعتُها... وجدتُ ملجأَنا عبارةً عن ركامٍ أسودَ تجمَّعَ رفاقُنا حولَهُ للبحثِ عن أشلائنا...

نعم، أشلاؤنا، فقد درجوا اسمي ضمنَ الخسائرِ لأنّهم لم يجدوا ما يدلُّ على كلِّ واحدٍ مِنّا بين الركامِ سوى أسمائنا المدرجة في سجلِ الوحدة وأشلاء متداخلة وزّعوها بالتساوي على سبع بطّانياتٍ، صرنَ ستةً بعدَ أن شاهدوني قادماً من جهة النهر، حيثُ وزّعوا أشلاءَ البطّانية السابعة على الستِّ الأخريات وشطبوا اسمي من سجلِ الخسائر!

هـذا السـجلُ الـذي ارتبطـتُ معَـهُ بعلاقـةٍ غريبـةٍ بـدأت أيّـامَ معـاركِ الحـرب العراقيـة . الإيرانيـة، حين عرفـتُ مـاذا تعنـي تسمياتُ الحـربِ التـي قـرأتُ عنهـا الكثير...

عرفـتُ حقيقـة مفـرداتٍ مثـل الملاجـئ... والأرض الحـرام... والحجابـات... والـدوريات القتاليـة... والكمـائن... والتعـرّض... والهجـوم... وكـلّ المفردات التـي كنتُ أتعاملُ معَها باسترخاءٍ وبرودٍ... صارت تؤدِّي إلى معانٍ أخرى... وصرتُ أتعاملُ معها بشكلٍ مباشرٍ...

تذكرت سعيداً و " بشاراً" رفيقي موضعي في القاطع الأوسط في خانقين يوم كنّا مدفونين في الحجابات بينَ أنفاس العدوِّ... حدثَ تعرُّضٌ مفاجئٌ على قوّاتنا استشهدَ أثناءَه "سعدٌ" و"بشّار" وبقيتُ مختبئاً في ملجئنا... قضيتُ يومين في بحرِ ظلامٍ دامسٍ، أتحسَّسُ وجودي بينَ جثّتين كانتا قبلَ قليلٍ لكائنينِ رائعين يضحكانِ معي ونتقاسمُ الجوعَ والعطشَ والانتظارَ... والترقُّب...

هاهمـا، عبـارةٌ عـن رائحتـينِ لا يصـفهُما وصـفٌ فـي البشـاعةِ... وهاأنـذا قـد أموتُ في أية لحظةٍ...

أنا بين الخسائرِ... لا أدري ماذا قيلَ عنّي في قطعاتنا الخلفيّةِ...

ولا أدري كيفَ زحفتُ بيأسٍ مُغامرٍ إلى فمِ الملجأ وأدركتُ الطريقَ النيسميَّ ذا اللونِ الفاتحِ بين دكنتـيّ الألغام... لأصلَ زحفاً بأعجوبـةٍ إلـى قطعاتِنـا وأفقد الوعي بينَ رفاقي المقاتلين الذينَ تلقّفوا جسدي بلهفةٍ واندهاش...

صحوتُ بعدَها لأجدني في وحدةِ الميدانِ الطبيّةِ غارقاً في لجّةِ دوارٍ عنيفةٍ..

- 3 -

لم أحصِ بالضبط الفترةَ التي غابَ فيها عنّي الرجلُ الغريب، حتّى أطلَّ مبتسماً باذخَ الحضورِ يتأمّلني صامتاً، وكعادتي لا أستطيعُ الحديثَ معَهُ...

أخبرني أنهُ يتابعني خلالَ هذهِ الشهورِ الستة التي مرّت، وإنُه ليسَ بعيداً عني، ويدركُ ما أعانيه وأنا أجوبُ الطرقات في ليلِ بغداد المتشظّي، ولا أجدُ استقراراً بعد انقضاء سنوات خدمتي في الجيش وتفصيلات المعارك وآثارها العميقة وإحباطات الحياة...

ودّعتُ أهلي في البصرةِ . أبويَّ القلقين وأخوتي . متجهاً إلى بغداد بحثاً عن فرصةِ عملٍ مناسبةٍ، لم تتوفر لي بسهولةٍ، ولم أستطع العودةَ إليهم محبطاً، هذه العودة التي يتقنُها أبي حيثُ كانَ موزّعاً متنقلاً في معمل "البيبسي كولا" في بغداد وقلبُهُ هائمٌ في رحيلِهِ الدائم إلى البصرةِ، إلى صباهُ وشبابِهِ، إلى سواقي الطفولةِ والعشب الطافي والصيد...

إلى صحوتي الأولى... وموتي الأول حين كنتُ تلميذاً في الصف الثاني الابتدائي في قرية "الخاص" الطافية على مياهِ الفُرات الهائجة التي ولدّت فيضاناً شعرنا بالفرحِ والألفةِ معه... وصارَ الصيدُ هوايةَ كُلِّ طفلٍ وامرأةٍ وشابٍ لأنَّ المياه تتسلّلُ إلى البيوت والصرائف المبنية بالقصب المدعّم بالبردي...

لنرتفع في ليالي الصيف على السوابيط[1] العالية الباردة ونتأمّل القمر الصاخب وثرثرة النجوم...

ونصحو على ندىً آسرٍ يضيءُ وجوهَنا بالصباحاتِ المبكّرةِ ذوات الروائح التي ظلّت خالدةً في الذاكرةِ ترسمُ لنا عبقاً خالصاً نعودُ إليهِ في كلِّ ضيقٍ حياتي...

كنّا نتنقّلُ بالزوارقِ الصغيرة...

وفي إحدى المرّات وأنا أقودُ بارتباكٍ طفوليّ زورقاً صغيراً ترافقني شقيقتي التي تكبرني بعامين، جلبَ انتباهي صوتٌ من ماءِ الساقية، فأخرجتُ جسمي الصغير من حافّة الزورقِ الجانبية متطلعاً بفضولٍ إلى الماء حتّى فقدتُ توازني وسقطتُ...

ولأنني لم أتعلّم السباحةَ بعد فقد نزلتُ إلى القاع محاولاً . عبثاً . التشبُّثَ بأيِّ شيءٍ حتى أنني كنتُ أمسكُ الماء بقبضتي الصغيرة التي يهربُ منها الماء فأعود إلى القاعِ ثانيةً...

شعرتُ بالاختناق وشاهدتُ مئات الأيدي الضخمةِ تلتفُّ حول عنقي وتمنعُ عنّي التنفُس...

فقدتُ وعيي الذي عادَ إليَّ وأنا ملقىً بينَ عشراتِ العيونِ الباكيةِ التي سرعانَ ما تحوَّل بكاؤها إلى زغاريد وهي تتطلّعُ بدهشةٍ إلى عينيَّ الحمراوين اللتين انفتحتا فجأةً...

أخبرتني شقيقتي فيما بعد أنّها صرخت بأعلى صوتها مستنجدةً بصرخاتٍ عديدةٍ، ولطمت على وجهها حين لاحظت سكوني باستسلامٍ في قاعِ الماء...

وسقطت هي أيضاً مُغمياً عليها... ولكن في جوفِ الزورقِ الساكن... ولا تدري ماذا حصلَ بعد ذلك؟

حتى فتحت عينيها على ضجيجِ الناسِ وتجمُّعهم حولي فيما كانت هي نائمةً

---

[1] *السوابيط: جمع سوباط، وهو سقفٌ من القصب والبردي يكون محمولاً على مساند (أربع) من جذوع النخيل.*

في حضنِ عمتِنا وهي ترتعشُ من البردِ والخوف... والزورق الصغير الذي كانَ يحملُنا يقفُ بأسىً على جرفِ الساقيةِ...

من يومِها أصرَّ والدي على أنْ أتعلَّمَ السباحةَ وأنْ أكونَ سباحاً ماهراً، وهكذا علّمني كل أنواعِ العوم وفنونه...

لكي لا أغرقَ ثانيةً!

وهاأنذا في بحرِ الحياة، ما أن أنتهي من موجةٍ حتى تتلقّفني موجةً تالية... ثمَّة أعاصيرٌ... وبحّارةٌ لم يحدِّدوا هدفاً بعد؛ فيما تعدّدت الفنارات، وتوالت الجزر المتنوّعة بينَ صغيرة أو كبيرة.. لم يَعُد الغرقُ مهدداً لي، بل هذا الإبحار اليوميُّ في دوّامةٍ من القلقِ والسير . بالمصادفةِ . إلى هدفٍ ما سيكونُ واضحاً يوماً!.

أقولُ ذلك بعد هيجانِ الحيرةِ التي اكتنفتني، ذلكَ أنَّ خروجَ الفردِ من سياقٍ حياتيٌّ في التجربة . وإن كانت التجربةُ قاسيةً . إلى سياقٍ حياتيٍّ آخر يختلفُ عنها، يجعلُ الفردَ مغموراً بالحيرةِ والقلق وقسوة الاختيار!

وحينَ سُلِّمتُ "كتاب تسريحي" من خدمةٍ عسكريّةٍ امتدّت لأكثر من ثماني سنواتٍ من الصبرِ والمعاناة والبطولةِ أيضاً... جمعتُ حاجياتي العزيزة، وودّعتُ الأصدقاءَ فَرِحاً، وانطلقتُ بسرعةٍ إلى فضاءِ المدينةِ متحسِّساً كلَّ لحظةٍ ملابسي المدنيّة التي لم أكن مُصدِّقاً بأنني أرتديها بعدَ هذهِ السنوات الشائكة التي أدمن فيها جسدي الملابس "الخاكي"...

في الأيّامِ الأولى من حياتي المدنيّةِ، حاولتُ أن أُشبِعَ الرغباتِ التي ظللتُ جائعاً إليها كلَّ مُدّةِ مكوثي في الجيش...

والرغباتُ التي قصدتُها ساذجةٌ بالتأكيد، لأنّها لا تزيدُ عن النومِ لساعاتٍ متأخّرةٍ بعدَ الصباح، والاستيقاظ المدلّل، وتناول الفطور اللذيذ المعدّ خصيصاً من قبل الأمّ الحنون، وعدم حلاقة الذقن، وإطالة شعر الرأس، وارتداء الملابس النظيفة المكويّة جيّداً ثمَّ الذهاب إلى "العشّار" لمشاهدة الكتب والإصدارات الجديدة في المكتبات، وعروض الأفلام في دور السينما، والتلصّص الخجول على الفتيات الجميلات، ثمَّ العودة إلى المنزل وتناول طعام الغداء وبعدَهُ الاسترخاء والمطالعة الممتعة فالنوم لمدّة ساعتين أو ثلاث والعودة ثانيةً إلى "العشّار" للقاءِ بعض

الأصدقاء...

استمرت معي الحياةُ هكذا لبضعةِ أيّامٍ، أحسستُ بعدَها بتهديدِ الإفلاس لي، لأنَّ ما ادّخرتُهُ من الراتبِ الأخير في الجيش بدأ يتآكل...

وبدأتُ أنسجُ خيوط معاناةٍ أخرى... أين أعملُ؟...

هل أعملُ في مجال دراستي (التكنولوجية) التي لم أعد أتذكّرُ منها إلا بعض أسماء المدرسين وبعض الحكايا والطرائف والوجوه التي دَرَسَت معي؟

هل أعمل في مجالِ الصحافةِ والكتابةِ الأدبية التي أستطيعُ من خلالها أن أقدِّمَ عطاءً طيّباً؟...

ولكن أينَ الضمانات الماديّة الميسورة، في عملٍ صحفيٍّ غضٍّ ما زالَ يتلمَّسُ بداياتِ طريقٍ طويلٍ جداً ومتشابك السبل؟

وهكذا جمعتُ حاجياتٍ بسيطةً في حقيبتي الجلدية الذابلة، وودّعتُ الأهلَ قائلاً بلا تردُّد:

. سأعملُ في بغداد...

في إحدى الليالي الممطرةِ وفي أحد المواضعِ القتاليةِ في الجبهة، تسابقنا في الجُهدِ لإنجازِ عملٍ جماعيٍّ يجبُ أن ننجزَهُ!... ذلكَ لأنَّ سيولَ المطرِ غطّت شقَّ الساترِ وأصبحت ملاجئنا عبارةً عن بركٍ مائيةٍ تطفو عليها حاجياتُنا، لذلكَ نهضنا جميعاً... وبدونِ أمرٍ عسكريٍّ، لإفراغِ الملاجئ من المياه التي ستمنعُ حتماً ديمومةَ حياتنا بشكلٍ طبيعيّ، لم نشعر بالإنهاكِ حينها، رغمَ الجهدِ الجبّار الذي بذلناهُ، حيثُ تركنا رفاقنا المكلّفينَ بالواجبات في "مزاغلهمِ" المطلّةِ على الأرضِ الحرام، وانغمسنا جميعاً في الطين، لإفراغ الخندق من الماء، ونجحنا في ذلك بعدَ حومةِ عملٍ مجنونةٍ...

هذهِ الحكايةُ، رويتُها لصديقي القاص "محمد كامل" فكتبها بإطار قصّةٍ قصيرةٍ فاز فيها بإحدى الجوائز التقديريّة في إحدى المسابقات الوطنية الخاصّة بقصةِ المعركة.

زوّلتُ رقم هاتف "محمد كامل" وجاءني صوتُهُ مبتهجاً على الطرف الآخر:

. هاه... أخيراً حسمتَ أمرَكَ وجئت!

. لقد احترتُ واللهِ يا محمد!

ـ حسناً تعالَ إليَّ فوراً، وسنتحدَّثُ بهدوءٍ في البيتِ عن فرصةِ عملٍ سانحةٍ لك، فكّرتُ بها مليّاً...

وذهبتُ إليهِ بأقصى ما استطعتُ، حيث انتظار أوّلِ حافلةٍ والتدافع بالمناكب لصعودها، لتنطلقَ بنا إلى "الكاظمية" حيثُ بيت صديقي "محمد كامل"...

رحّبَ بي محتفلاً، وجلسنا نسترجعُ أيّامَ الدراسةِ والأصدقاء، ومغامراته التي انتهت كما زعمَ بزواجِهِ من زميلتنا في الدراسةِ "ماجدة" التي صارت الآن أمّاً لثلاثةِ أبناءٍ قابلين للزيادةِ!

... هكذا قال بتباهٍ... ثمَّ أردف:

. أمَّا أنت فسوف تتزوجُ ضُرّتين في آنٍ واحدٍ هما "كرة القدم" و"الشعر" لأنني لا أرى حماساً لك إلا في هذين المجالين!.

. ماذا أفعلُ يا صديقي وأنا حتى الآن لم أستقر في عملٍ يضمنُ لي وضعاً مادياً معقولاً؟

. في غضون أيّامٍ ستكونُ لك وظيفة مناسبة.

وبقيتُ معه أياماً استطاعَ فيها أن يجدَ لي مكاناً شاغراً في "قسم التصحيح" في إحدى الصحف المحليّة...

وبدأت لقاءاتي معَهُ تتناقصُ حتى انقطعنا عن بعضٍ، هو في حياتِهِ الصاخبة التي أدّت إلى زواجِهِ بامرأةٍ أخرى، وأنا بينَ أمواجِ حياةٍ تتقلُّها الريحُ من اتجاهٍ إلى آخر...

وبعدَ خمسة أشهرٍ من العملِ، طُلبت مواليدُنا للالتحاقِ بالخدمة العسكريّة والمشاركة في الحرب!

- 4 -

أسبابٌ كثيرةٌ تجعلني لا أبوحُ بسرِّ لقاءاتي بالرجلِ الغريب، وأوّلُ هذهِ الأسباب هو عدمُ واقعيّةِ هذهِ اللقاءات، وربما من بين الأسباب أيضاً صعوبة تصديق هذهِ العلاقةِ الغريبة التي أستطيعُ تسميتها الروحية... بيني وبينَهُ...

لذلكَ ظلَّ الأمرُ سِرّاً، وظللتُ مشغولاً بكلِّ حواسي بغرابةِ هذهِ العلاقة وثبات موعدِ إطلالةِ الغريبِ عليَّ...

ولا أخفي بأنني أشعرُ بـهِ حاضراً في كُلِّ الأماكنِ التي أرتادُها... ولا يأتي هذا الشعورُ محدّداً بأماكنَ أو أوقاتٍ أو حالاتٍ دونَ غيرها... كما أنني لا أرى دلائلَ ماديةً على ذلك الحضور بل هناك إحساسٌ داخليٌّ لا أستطيع توصيفَهُ هو الذي يهيمنُ عليَّ فأشعرُ بقربِهِ منّي وأحياناً أسمعُ صوتَهُ في رأسي يصوِّبُ لي سلوكاً أو يرشدني إلى طريق، أو يذكِّرني بشيءٍ ما!...

وصرتُ أختلي مع نفسي كثيراً طمعاً في تحقيقِ لقاءٍ ما، أو الوصول إلى أيِّ تصوُّرٍ خاصٍ يدعمُ قلقي وقناعتي بهذا الوجود الغريب وأصبحتُ على يقينٍ تامٍّ بأنّهُ يحومُ حولي بشكلٍ أو بآخر، رغمَ قناعتي الأكيدة بعدم حدوث مثل هذهِ التصوّرات إلا في الحلم أو في رؤيا الخيال المحض...

وبدأتُ أعدُّ الأيّامَ والشهور، وأخلدُ للصمتِ والتأمُّل

الذي يأخذني إلى أجواءٍ أُخرى أيّامَ ميدانِ حيويّتي وتفتُّحِ آفاقي وطراوتِها

وبراءة خياراتها.. أثناء الوقوف أمامَ الأنثى بكلِّ تقديسٍ وهي الحبيبةُ الجميلةُ التي لا أطمعُ من لقائها سوى بابتسامةٍ حالمةٍ تأخذُني من يدي لأطيرَ في الفضاء..

أيّام الدراسةِ والأحلام والجوّ الجامعي الغارق بطقوسِ الانتظار ومؤازرةِ فروضِ الحربِ والتهيّؤ الدائم للمشاركة في جولاتها.. أيّام دخول قاعات الدرس بالملابس العسكرية.. وكتابة القصائد التعبويّة الخاصّة والإلقاء الحماسيّ لها على المنبر..

أيّام الأصدقاء الذين تجمعُهُم فنارٌ مسائيٌّ واحدٌ وأفكارٌ متشابهة وعوزٌ يتعاضد وأحلامٌ تتواثبُ وخطواتٌ محمومةٌ في طريق الطموح..

أيّام الشكوى من نقصٍ في المحاضرات والشكوى من التهديد بالفصلِ دائماً..

لأننا لا نحبُّ صرامةَ الدروسِ ونميلُ إلى تبادلِ الكتب الأدبيّةِ الجديدة، لنا مريدونا، وهم يقلّدونَ خطواتِنا بالتفصيل!..

نحن جماعة الأدب والفنِّ المنفلتين من الأُطرِ المرسومةِ لنا، لذلكَ رسبنا في صفوفنا أكثر من سنةٍ...

لا يهمُّ

المهمُ أنّنا أنجزنا نصوصاً في الأدبِ وفي الحياةِ..

فيما تزوّجُ زميلُنا "خالد" إحدى مدرساتنا.. وهو الأغنى بينَ الجميع هو صديقُنا الذي يغدق علينا ويكملُ نواقصَ سهراتِنا ورحلاتنا ومشاريع جنونِنا الهادئ!

البعضُ من زملائنا التحقَ بالجيشِ . بعدَ تخرُّجِهِ . وبعضُهم . قبلَ تخرّجِه . وكلاهما ذهب إلى مراكزِ التدريب ومن ثمَّ إلى جبهاتِ القتال..

نراهم في إجازتِهم فخورينَ بيننا بلباسهم العسكريّ الرسميّ وربتهم الشابّةِ المعبّرة عن أمنياتهم!

ونتباهى أمامَهم بمشاركتنا ضمنَ قواطع الجيش الشعبي في القاطعِ الشماليّ ونبرزُ لهم صورَنا العسكريّةَ في الجبهات..

لا فرقَ بيننا أيُّها الأصدقاءُ

وهانحنُ في الشهورِ الأخيرةِ من أيّامِ دراستنا والحربُ لا تنتهي.. وننهي

الدراسةَ..

لنبدأَ خطواتِنا في عالمٍ مختلفٍ تماماً، عالمٍ طوينا فيهِ الأحلامَ الشفّافةَ والندى الصباحيّ وزقزقات الحُبِّ بينَ أغصانِ الفرحِ المحمولِ على كفٍّ من الشعور بالانفلاتِ عن الأُطرِ التقليديّةِ..

بدأنا نسيرُ إلى حياةٍ مهدّدةٍ..

إلى سحبِ الشمسِ من خُصلاتِها كي ترى أجسادَنا الترابيّة وهي تُصغي لإيعازاتٍ مدويّةٍ

... استعدْ..

استرحْ..

إلى الأمام.. سِرْ!

تنكّبْ سلاحْ..

هرولْ!

درسُنا اليوم بعنوان "الصولَهْ"

و... نُنهي دورةَ التدريب.. ونتسَلَّمُ كتبَ التنسيبِ إلى الوحداتِ التي تقعُ في جبهاتٍ لا نعرفُ عنها سوى أسمائها والمشاركة المدلّلةِ مع القاطع الطلابي التابع للجيشِ الشعبي في شمالِ الوطن..

حملني كتابي إلى القاطع الأوسط.. إلى "خانقين". منطقة نفط خانة. وبدأتُ في أوّل نقطةِ انطلاقٍ في جوفِ القاطع الذي يبدأُ من مقرِّهِ في المدينةِ الصارخةِ ويمتدُّ حتى كبدِ الأرضِ الحرامِ الصامتةِ أبداً..

هُمَّش الكتابُ.. لآخذَ متاعي وأصعد "الإيفا" وأرتمي في جوفِها الخلفيّ مع عددٍ من المقاتلين.. الذين تساءلوا عن وجودي بينهم.. في أيِّ فوجٍ أنتَ؟.. ومن أينَ أتيتَ؟

أجبتهُم على كلِّ أسئلتهم، وقلتُ لهم إنني تخرّجتُ حديثاً في الدراسةِ وهاأنذا

ألتحقُ بالجبهة بعد أنْ أنهيتُ الدورةَ التدريبيّة في مركز تدريب مشاة البصرة في الناصرية!..

وسرعانَ ما نامَ الجميعُ رغمَ الاهتزازات العنيفة في السيارة وأكداس التراب الذي غطّى وجوهنا وأحسست بلزوجتِهِ ومرارتِهِ وباليأسِ الغريب الذي غلّفَ مشاعري.. الليلُ يتسرَّبُ تدريجيّاً إلى بطنِ سيارة "الإيفا" التي تقلّنا، سوادٌ ثقيلٌ.. وصمتٌ عنيفٌ يشيرُ إلى طبيعةِ ما سيحدثُ.. ولا أجدَ مَنْ أسألُهُ عن المنطقةِ التي مازلنا نتوغَّلُ في سوادها وعن المسافة المتبقيّة لكي نبلغَ المكانَ الذي نقصدُهُ..

هانحن نسيرُ أكثرَ من أربعِ ساعاتٍ ولا يوجدُ ما يشيرُ إلى نقطةٍ ما سنصلُها..

إنهُ مجهولٌ غريبٌ لا امتلكُ إزاءَ إحساسي بهِ سوى الانتظار والصبر والترّقب..

لقد سحبني صمتُ هذه الليلةِ إلى تفاصيل حياتي كُلِّها.. إلى أيّام ممارستي الرياضة الباذخة في الانفتاح والفرح.. إلى العلاقات الصاخبة المجنونة.. البيضاء! والعلاقات الهادئة السريّة... إلى مرضِ أبي المزمن.. وقلق أمي الدائم.. وتضارب شؤون أخوتي في اهتماماتهم..

تذكّرتُ أصدقائي واحداً.. واحداً.. وطالما تبسّمتُ مع نفسي وأنا أستعيدُ بعضَ المواقفِ والحالات الطريفة.. مرّتْ بذاكرتي الأنثى الأولى في حياتي فتنهدّتُ وأنا أجري خلفَ أنغامِها.. وأسحبُ بساطَ الخجلِ والتردّدِ الذي جلستُ عليهِ مدّةً طويلةً.. والبيتين الشعريين اللذين اندلقا من فمي وقلبي وحيرتي مرّةً واحدةً ليردّدَها جميعُ الأصدقاء بإعجابٍ..

تمرَّغتْ لغتي بالصمتِ وانتحرتْ ... على الشفاهِ هتافاتُ الفمِ الثملِ

مرّوعاتٍ أناشيدي صُلِبْنَ بها ... وضاعَ عزمي بينَ الخوفِ والخجلِ

كنتُ.. حينَ أختارُ موعداً دقيقاً لملاقاتِها وهي خارجةً من دوامها المدرسيّ،

وكـأنَّ الأمـرَ مصـادفةً محضـةً، أكتفـي بالتحيّـةِ المرتكبـةِ التـي لا تـوحي بشـيءٍ خاصٍّ، وأستلُّ ابتسامةً منها تقودُني إلى يومٍ مليء بـالمرحِ والغنـاءِ والسعادة السريّةِ والأمل الواسع رغمَ أنفِ الحياةِ الفقيرة..

ياه.. كم مرَّ على تلك الأيّام البريئة؟

وكم ولّدتْ لدي من الأحاسيس الجيّاشةِ لتظهرَ أغنياتٍ وقصائدَ..

ويومَ بـدأت الحـرب وجدتُ صـعوبةً فـي الوصـولِ إلـى مدرسـتي بسـبب شـدّةِ القصف وعشوائيته..

وتطوّعتُ مع زملائي في فرق الدفاعِ المدني.. شعرتُ مباشرةً بالرجولـةِ الحقّة وحجم المسؤولية التي يجبُ أنْ أتحلّى بتحمُّلها..

مـرّتْ بـي مواقفُ كثيـرةً.. أكّدتْ لـي بـأنني بلغـتُ مرحلـةَ الإحسـاس الأعلـى والأعمق بالانتماء الحقيقيّ للوطن، وضرورة آخذ دوري الكامل في حمايتِهِ والدفاعُ عنـهُ، لذلك أصـررنا . أنـا وزملائـي . علـى الـدوام المدرسـيّ بـالملابس العسـكريّة والاستعداد الحقيقيّ لمواجهةِ أيِّ موقفٍ محتملٍ..

حتّى أبعدَ جيشُنا قوّاتِ العدوِّ عن حدودنا وأصبحَ القصفُ بعيداً إلى حدٍّ ما عن مدينتنا..

تعلّمتُ مفرداتٍ جديدةً تُعنى بلغـةِ الحرب، وتألّمتُ لفقدان أصدقاء استشـهدوا في جبهاتِ القتال.. كتبتُ عنهم أصدق الكلمات والقصائد الشعريّة..

فيما مضيتُ فـي رحلتـي الدراسية لأنهـي الإعداديـةَ وأرحل إلـى مدينـةٍ أُخرى لإتمامِ دراستي الجامعيةِ فيها..

الطريـقُ مـازالَ طـويلاً، أو هكـذا أحسسـتُ.. وليتَـهُ يطـولُ أكثـر لأبقـى راحـلاً مستمتعاً بصورة الماضي ونبضَهِ الذي مازالَ حيّاً..

الليلُ يزدادُ صرامةً ويصرخُ الصمتُ فيهِ مستغيثاً ومصغياً إلى دويِّ "الإيفا" وشخير الرجالِ النائمين المتلاشي في جوفها.. والتراب البارد.. المحتفل بنا في الطريقِ الذي بدأ يتعرّجُ في الصعودِ والنزولِ الواضحين بحدّتهما، تاركاً لي فُرصةَ استنتاجٍ جغرافيٍّ آخر يقودُني إلى حدسِ المكان في هذه الرحلةِ الطويلة.

- 5 -

ازددتُ إصراراً للحديثِ مَعهُ، وهيّأتُ أسئلةً كثيرةً لطرحِها عليهِ، ربما سيكونُ أوّل هذهِ الأسئلةِ تقليدياً ولكنّهُ مهمٌ بالنسبةِ لي وهو اسمُهُ ثم أين يسكنُ ومن أينَ جاء وهل هو من صُلبِ الواقعِ أم من أجنحةِ الخيال.. الخ؟.. من الأسئلةِ ذات الطابع الاستدلاليّ على ماهيّةِ الكيانِ الذي شغلني كُلَّ هذهِ المدّة..

وهاهو يطلُّ ثانيةً، نظراتُهُ القويّةُ الثابتُهُ المصوَّبةُ نحوي أخرستْ لساني مرّةً أُخرى!

أخبرني عن قلقِ أبي وأميّ عليَّ، وهم لا يعرفون الآنَ عن مصيري شيئاً..

صحوتُ قلقاً بسببِ قلق عائلتي عليّ..

وشعرتُ بدوارٍ وألمٍ شديدٍ في رأسي..

كيفَ سأذهبُ إليهم، وأنا لا أملكُ شروى نقيرٍ.؟! نعم.. وجدتُ فرصةَ عملٍ ولكنّها تكفي لسدِّ قوتي اليوميِّ المتواضعِ حسب..

وأنا أعلمُ فقرَ حالهم، وأعلمُ أيضاً أنّهم يبيعونَ حفناتٍ من كتبي العزيزةِ لكي يسدّوا رمقَهُمْ..

وقد تعوّدوا غيابي أيّامَ المعارك وانقطاع الإجازات.

لقد اشتقتُ إليهم الآن!

أدركني أيُّها الغريبُ.. القريبُ، فأنا أتحرَّقُ شوقاً لزيارةِ مدينتي وأهلي ولا

أستطيعُ الذهاب المنهك إلى هناك..

أدركني ودلّني على وسيلةٍ أحصل فيها على ما يحقّقُ لي هذهِ الرغبةَ العصيّة التي تبدو ساذجةً في ظاهرها..

أخذتني الحيرةُ إلى المقهى القريبِ من الفندقِ البائس الذي أعيشُ فيه.. وجدتُ صديقين أحدُهما قاصٌّ ساخرٌ نشرَ عدداً من قصصهِ القصيرةِ في إحدى صحفنا المحليّةِ ونالتْ إعجاباً من القُرّاءِ وبعض النقّاد لما تتميّزُ بهِ هذهِ القصصُ من موضوعاتٍ يوميّةٍ مألوفةٍ ولغةٍ بسيطةٍ سلسلةٍ وأسلوبٍ يميلُ إلى السخريةِ..

والآخرُ رسَّامٌ جيّدٌ باعَ في الأيّامِ الأخيرةِ عدداً من لوحاتِهِ على أحدِ الوفودِ التي تزورُ البلاد وحقّقَ منها ربحاً أذهلنا جميعاً.

كانا مشغولين بلعبة (الطاولي).. وقد ردّا على تحيتي لهما باستعجالٍ كي يستمرّوا في هيامهم الغريب بالأرقامِ والأقراصِ وشدِّ الأعصاب المرتبط بلعبتهما تلك...

تركتُهما في انغمارِهما.. وعدتُ إلى الفندقِ، جمعتُ ما بحوزتي من كتبٍ وذهبتُ إلى إحدى المكتبات وبعتُها بأبخسِ ثمنٍ.. أخذتُهُ وانسللتُ إلى مدينتي..

تلك الأمّ الحزينة التي تترقّب ابنَها الوحيد وقد جملّت الشظايا وجهَها بالنمش والخطوط واللاّفتات السود التي طالما تجنبتُ قراءتها لئلاّ تصطدم عيناي باسمٍ أعرفُهُ، وأنا أعلمُ بأنَّ الحرب قَدْ شاركَ فيها جميعُ أترابي وضمّتْ بسنينها الثماني أجيالاً متعدّدةً زحف بعضُها للمشاركة في (حرب الخليج) التي جابَهَ فيها العراقُ أكثرَ من ثلاثين دولةً.. في معارك (حرب العراق وإيران)، العدوُّ واضحٌ نعرفُ مداخلَهُ ومخارجَهُ وموقعَ مواضِعِهِ وبالتجربةِ عرفنا عن أفرادِ العدوِّ كلَّ خصائصهم ومواصفاتهم..

وربّما الساعاتُ الأولى بعد وصول (الإيفا) إلى فوّهةِ الساترِ الأمامي ونزولنا جميعاً منها في ليلةٍ لا يُصَّدقُ طولهُا، أقولُ ربّما الساعاتِ الأولى كانت مغلّفةً بالحيرةِ إذْ تفرَّق المقاتلون الذينَ رافقتُهم في جوفِ (الإيفا) إلى مواضعهم وملاجئهم عبرَ طريقٍ ضيّقٍ يتطلَّبُ منهم تحمُّلَ السير الطويل الحذر على أقدامهم..

اصطحبني ظلٌّ كثيفٌ لرجلٍ ألقى عليَّ التحيّةَ بودٍّ إلى ملجئهِ القريب.. وجلسنا في زاويةٍ منهُ مع رجلينِ آخرين، عرفتُ فيما بعد أنَّ هذا الملجأ يخصُّ

(عرفاء الوحدة)..

وجهّوا لي أسئلةً سريعةً، وهيّأوا لي وجبةَ طعامٍ تتلاءمُ مع العزلةِ التي تكتنفُهُم.. وقالوا لي نَمْ هذهِ الليلةَ وفي الصباحِ لدينا الوقت الكافي للحديثِ عن الجبهةِ وعن المكان الذي ستنسَّبُ إليهِ..

فرشتُ (يطغي) ونمتُ بعمقٍ في تلكَ الليلةِ بسببِ التعبِ والحيرة والانتظار..

وقد صحوتُ على صوتِ حركةِ أوراقٍ بيد (رأس عرفاء الوحدة) الذي وجَّهَ إليَّ تحيّةَ الصباح وأخبرني بأنَّ الشاي مازالَ حارّاً وأنَّ (الصمّون) في الجانب الآخر من الملجأ كما أنَّ هناكَ بيضاً مسلوقاً بالقرب من الشاي..

هيّا تناولْ فطورَك لنتحدّثَ في الأهم!

تضمَّنَ الحديثُ البسيطُ والمهمُ أيضاً تعريفاً بالجبهةِ التي سأكونُ ضمنَ قوّتها، ووصايا حولَ التعاملِ مع ظروفِها المختلفة..

بعدَها أعطاني أمرَ تنسيبي إلى أحدِ فصائل الحجابات المتقدّمة!.

والحجابات.. تقعُ في لسانٍ أو جبهةِ الأرض الحرام...

قضيتُ نهاراً ثقيلاً لآخُذَ أمتعتي في الليلِ وأتوجَّهُ حيثُ أمروني بعدَ أن رافقني أحدُ مقاتلي الحجابات إلى مكاننا الجديد..

تعرَّفتُ هناك على عددٍ من الرفاقِ الذينَ خبروا المعارك وتعلّموا أسرارَ الحفاظَ على حيواتهم ومكانهم من فرصِ تلصُّص العدوّ وتعرُّضاتِهِ.. وتبادلوا الوجباتِ التي ينظّمُهُا بينهم يوميّاً عريفٌ شابٌّ نحيفٌ يحملُ شهادةَ البكالوريوس بالتأريخ القديم.. وقد قضى في الجيشِ حتّى الآن اكثرَ من أربعِ سنواتٍ تنقَّلَ فيها بين الجبهات..

رحبّوا بي، ودُرِجَ اسمي ضمنَ الواجباتِ في توقيتٍ آمنٍ من غيرِ المتوقّعِ أن تحصلَ فيه مفاجأةٌ من مفاجآت الحرب.. المزعجُ في مكانِنا هذا كثرةُ أوقاتِ الفراغِ التي لا تضيعُ بسهولةٍ، لاسيّما وأنَّ الحركةَ عندنا محدودةً بأمتارٍ واطئةٍ قليلةٍ، كلُّ شيءٍ فيها يميلُ إلى اللونِ الترابي (والخاكي) ولا وجود للألوانِ الأُخرى إلاّ في أجسادِ بعضِ الزواحفِ الصغيرةِ والحشراتِ المزعجةِ التي نراها دائماً بيننا..

فكّرتُ بصخبِ المدنِ وأضوائها والاحتفال الإنسانيّ في رحابِها..

وتذكّرتُ النساءَ والأصدقاءَ وضجيجِ العالمِ الذي لا يمكنُ لهُ أبداً أنْ يعيَ

طبيعةَ هذهِ العزلـةِ القاتلـة.. ولأننـي لـم أتوقّـعْ مثـلَ هذا الفراغ، فقد تجنّبتُ حملَ الكتبِ معي وأنا أحملُ كتابَ نقلي إلى الجبهة ولكن بعد الإجازة الأولى صارت الكتبُ ملاذي الأكبرَ وأنهيتُ أمّهاتِها بعدَ الالتحاقِ من كلِّ إجازةٍ، عندها لم يَعُد الفراغُ قاسياً ولم يَعُد الانتظارُ إلاَّ شروعاً جديداً في عوالمِ كتابٍ جديدٍ مستلٍّ من الحقيبـةِ الثقيلـةِ التـي أصطحبُها معي في كلِّ إجازةٍ لأعودَ بحزمـةٍ جديدة.. تعوَّدَ رفاقي المقاتلون إدماني القراءةَ..

وبمرور الأيّامِ صاروا يستعيرونَ منّي بعضاً منها للقراءةِ حتّى تَ◌َسرُّبِ الليل إلينا ليحملَ لنا صورَ الترقُّبِ والحراسةِ وأداء الواجب في النقاط والأوقاتِ المحدّدةِ لكلِّ جماعةٍ مِنّا.

- 6 -

صرتُ أعرفُ تأريخَ اليوم الذي نلتقي به!

أحياناً يتقدّم عن حدسي لـه يوماً أو يومين، وأحياناً أُخرى يتأخّرُ يوماً أو يومين.

لذلك أصبحتُ أعدُّ نفسي لهذا اللقاء في الأسبوعِ الذي أتوقَّعُ فيهِ إطلالتَهُ..

لم تَعُدِ الأسئلةُ تشغلني كثيراً، ولم يَعُدِ الحوارُ هو ما أطلبُهُ من هذا اللقاء، بل كنتُ متلهفاً للإثارةِ التي صارتْ ترافقُ هذا اللقاء الغريب الذي أُصغي فيهِ بخشوعٍ لحسابِ خطواتي وأفعالي المرصودة، وللوصايا والتنبيه والانشغال بأغربِ وأنقى علاقةٍ بين اثنينِ عبرَ الذهنِ أو الحلمِ أو أيِّ تصوُّرٍ نفسيّ أو غير نفسيٍّ آخر ربّما يكونُ صحيحاً أو يكونُ خاطئاً..

ليس هذا المهم الآن، فهاهي السنواتُ تمضي، وهاهو مستمرٌّ بمرافقتي منذُ تلك الليلة المدهشة يومَ التقاني وأنا مقمَّطٌ بالموت..

المهمُّ الآن أن يأتي، أنْ يطلعني على ذاتي بكلِّ صراحةٍ وأنْ أرى فيهِ ذروةَ أعماقي وجذوة روحي وإطلالتي على صورةِ الحقيقةِ وإن كانتْ من خلالِ التباسٍ صوريٍّ أو ذهنيٍّ.. أو.. لا أدري!

في المرّةِ الأخيرةِ أطالَ المكوثَ معي، وأطلتُ التحديقَ فيه، بدا صامتاً أكثرَ ممّا اعتدتُ عليهِ، ثمَّ أخرجَ ورقةً صفراء من جيبهِ، بدتْ عليها كلمات سرعانَ ما نسيتُها إلاَّ أنّها كانت تحملُ اسمَ أُمّي وصورةً غائمةً لها، عرفتُ أنّها تعاني من

أمرٍ ما.. استناداً إلى الرسالةِ التي قدّمَها لي في إحدى زياراتهِ لي والتي حملتْ إشعاراً ناغزاً لمصير والدي حيثُ أخرجَ لي من جيبِهِ منديلاً أسودَ كُتبَ عليهِ اسمُ والدي متقطّع الحروف... كانَ ذلك بعدَ اللقاءِ الخامسِ من تعارُفنا..

أمّا الآن فها هو يقدِّمُ لي ورقةً صفراء، وهاأنذا أنهضُ فزعاً من نومي وأغرقُ في نوبةِ بكاءٍ مع إحساسٍ صارخٍ بالذنبِ والندمِ الذي لا أعرفُ سبباً محدّداً لهُ..

في ظهيرةِ نفسِ اليوم، اتَّصلَ بي أخي الأصغر يعلُمني بمرضَ والدتي وحاجتها الماسّة لوقوفي إلى جانبها في محنتها هذهِ.. وهي التي وضعتْ صوري المتنوّعةَ أمامَها لتراني عبرّها وتحدّثني وتعاتبني على غيابي الدائم وعدم تواصُلي معهم... هرعتُ إلى بعضِ المعارفِ الموسرين، يا لصعوبةِ معاناتي، أعينوني!...

وحصلتُ على معونةٍ ماليّةٍ تكفيني للإسراعِ إليها..

تذكّرتُ غيابي ثلاثةَ شهورٍ عنها بسببِ توقّفِ الإجازات في الجبهة رافقتْها حركةً إلى قاطعٍ آخر..

وأقولُ هنا تذكَرتُ غيابي عنها (تحديداً) لأنني أنطلقُ من بديهيّةٍ تمثّلُ معادلةً طالما ردّدناها هي "إن الحرب تجري على قلوبِ الأمّهات"... حين حصلتُ على كنز إجازةٍ بعد ثلاثة أشهرٍ معقّدةٍ، بذلتُ قصارى جهدي لأصلَ إليها، وحينَ سمعتْ طرقاتِ يدي المستعجلة على الباب، استجمعتْ كُلَّ قوّةِ صبرها وانتظارها وركضتْ إليَّ لتضمّني بذراعيها المجهدين إلى صدرها وأخذتْ تشمُّني بقوّةٍ وتبكي بكاءً مزدوجاً في تعبيرِهِ الأصدق بين الفرحِ والحزن... ياه.. يا لحبِّ الأمّهات تُرى هل هناك حبٌّ يُضاهي حبَّ أمٍّ لولدها الغائب؟! في الجبهةِ كنتُ أكتبُ عن الأُمِّ وإليها..

أنتهزُ فرصةَ الاسترخاءِ لأدوِّنَ مذكّراتٍ ساخنةً وجدتُ البوابةَ الفنيةَ الملائمة لإطلاقِها هي أنْ تكونَ على شكلِ رسائلَ موجّهةٍ إلى أُمّي.. وقد شعرتُ بالحزنِ الشديدِ والألمِ الصادقِ حينَ فقدتُ مسوّداتِ هذهِ المذكرات في حومةِ التنقُّلِ بين الجبهات وفقدان أو . التخلّي . عن الكثيرِ من الحاجياتِ بسبب الإرباك الذي تولِّدُهُ (الحركة) من قاطعٍ إلى آخر... وجميعُ المقاتلين يعرفونَ بأنَّ أزعجَ ما يواجهُ المقاتلَ في الجبهة هو (الحركة) أو الانتقال.. مجرَد الانتقال، لأنَّ الجندي مشروعٌ

للاستشهادِ في أيِّ لحظةٍ... وكما يقولُ ريمارك "الجنديُّ يعيشُ بالمصادفة" نعم، فالشظيّةُ أو الإطلاقة أو القذيفةُ التي تصيبُ زميلاً مجاوراً لكّ كانَ من الممكنِ أنْ تصيبَكَ أنتَ مهما كانت درجة حذرك!...

كانَ الانتقالُ الأطول في حياتي العسكرية قَدْ حدث عند تحرُّكِ تشكيلنا من القاطعِ الأوسط إلى القاطع الجنوبي.. إلى "الفاو" هذهِ المدينة التي تنامُ في أقصى جنوبِ البصرة.. والتي صارتْ أشهرَ المدنِ وأخطرَها في وعينا.. لأنّها تعرَّضتْ لاحتلالٍ وابتلعتْ الكثير الكثير من الشهداء لتعودَ لأحضانِ الوطن..

.. حركة.. تهيّأوا! هكذا جاءَ الأمرُ..

لم يخبرونا عن جهةِ انتقالنا، فقد صدرَ الأمرُ العسكريُّ بلا تفاصيلَ أو إيضاحات...

هيئّوا أنفسكم ومعدّاتكم الضروريّة فقط للانتقالِ إلى قاطعٍ آخر..

وحزمنا "يطغاتنا" وحاجاتنا الضروريّة، وودّعنا ملاجئنا والصورَ الصديقةَ التي لصقناها على الجدران لنرحلَ إلى مكانٍ آخر.. نبدأُ من خلالِهِ مشواراً جديداً لا نعرفُ الآن أيَّ شيءٍ عنهُ..

انسحبنا في الظلامِ بهدوءٍ وصمتٍ حذرين.. لتحملنا سيّارات "الإيفا" إلى المكانِ الجديد.. إلى رحلةٍ طويلةٍ باتجاهِ الجنوب، سَرَتْ همهماتٍ بيننا، حدسنا من خلالها أنَّ المكان الجديد هو "الفاو"، وكلّما توغّلنا جنوباً ازددنا يقيناً بصحةِ حدسنا...

توَّقفت سياراتُنا في مطاعمِ الطرق الخارجيّةِ قبلَ محافظة "ميسان"، ووجدنا فرصةً للتعلُّقِ بأيِّ شخصٍ مدنيٍّ أو عسكريٍّ مجازٍ في طريقهِ إلى مدينتنا، لنعطيهِ قصاصاتِ ورقٍ صغيرةً موجّهةً إلى الأهل.. تحملُ خطّاً مرتبكاً يدلُّ على أننا مازلنا حتّى الآن على قيدِ الحياة.. هاهو العنوان.. أرجوكَ أن توصلها فأهلي قلقون جدّاً عليَّ!! لا شيءَ فيها سوى "نحن بخيرٍ".. "الإجازات ستطلقُ قريباً إن شاء الله".. لا أحتاجُ شيئاً سوى سلامتكم ودعواتكم لي"... أرجوكَ.. أيُّها الأخ لا تخبرهم بأنّنا منقولون إلى "الفاو" حتى لا يقلقوا!!

نصفَ ساعةٍ رأينا فيها العالمَ بشكلٍ طبيعيّ، وإن كانَ عالمُ الطرقِ الخارجيّةِ

سريعاً مرتبكاً بعيداً عن واقعِ الحياةِ الأكثر انتظاماً في المدن.. المهم.. إنّهُ وقتٌ مختلفٌ استثنائيّ عُدنا بَعدَه إلى توتّرِ الرحلةِ الطويلة.. لنصلَ في الليلِ إلى مساحات الفراغ . الظلام . الشاسعة التي ستذرفُنا لاحقاً إلى مدينة "الفاو".

- 7-

في إحدى زياراتِهِ لي اصطحبني إلى بابٍ خشبيٍّ دفعهُ بيدِهِ بحذرٍ لينفتحَ على ساحةٍ واسعةٍ توسطتها ثلاثُ نخلاتٍ بعلوٍّ شاهقٍ فيما ملئت الساحةُ بالطيورِ المتنوّعةِ الجميلةِ..

تجوّلتُ مَعهُ بانشراحٍ في المكان، وأطللنا بعنقينا من السياجِ الواطئِ الذي يحيطُ بالساحةِ لنرى النهرَ صافياً منساباً بهدوءٍ والأسماكُ ظاهرةٌ للعيان تسبحُ فيهِ بنشاطٍ، نظرتُ إليه إلاَّ إنّهُ اختفى فجأةً!

عدتُ إلى النخلاتِ الثلاث جلستُ تحتَ ظِلالهن ولمحتُهُ يخرجُ من البابِ..

ركضتُ خلفَهُ وحين اصطدمتُ بالبابِ المغلقِ استيقظتُ منهكاً وقد تعرَّقَ جسمي كُلُّهُ وأحسستُ بالعطشِ الشديد ونهضتُ لأعُبَّ ماءً كثيراً..

تُرى ماذا تعني هذهِ الرؤيا؟

وكيفَ تجوَّلنا هذهِ الجولةَ الساحرة الجميلة؟

ثمَّ هل هناك حقّاً مكانٌ يشبه المكانَ الذي زرناه معاً . أنا والرجلُ الغريب . ؟

نهضتُ من فراشي بعد أنْ عرضتُ شريطاً طويلاً من ذاكرتي عن الأماكن التي زرتُها فعجزتُ عن رؤيةِ مكانٍ شبيهٍ لما حلمتُ بهِ..

أحسستُ بأنَّ الليلَ ثابت في مكانِهِ، وأنا لا أستطيعُ العودةَ إلى النومَ بعد أنْ

صحوتُ منهُ مرهقاً..

تناولتُ أقربَ كتابٍ إليَّ وبدأتُ أقرأُ بهِ، وبعد أقلِّ من صفحتين أخذني الشرودُ الذهنيُّ إلى عالمٍ آخر، لم أعدْ أرى الحروفَ والكلماتِ المرصوفةَ في متنِ الكتاب، لقد دخلت صورةُ الرجلِ الغريب على الصفحاتِ لتشغلني عن القراءةِ، فأغلقتُ الكتابَ وتنهدّت وأنا أعيدُهُ إلى مكانِهِ..

لا أدري كيفَ أتعاملُ مع رؤيةِ علاقتي بهذا الرجل؟

هي ليست مصادفةً، أن تنتظمَ زياراتٍ بهذا الشكلِ العجيب من الدقّة..

والغرابةُ الأكثر تكمنُ في شفراتِ الرسائل والوصايا التي أتسلَّمُها منهُ...

هل أنسى الإشارة التي أبلغني إيّاها حولَ وفاةِ أبي؟

وهل أنسى إشارتَهُ الأُخرى حولَ مرضِ والدتي؟

حيثُ ذهبتُ إليها ووجدتُها تعاني من مرضٍ عسيرٍ في كليتيها أدّى بعدَ صراعٍ مريرٍ مَعَهُ لأكثر من شهرين في المشفى إلى وفاتها..

إنّهُ لغزٌ صَعُبَ عليَّ حلُّهُ، وبقيَ معي عصيَّ التفسيرِ والإحاطة...

بقيتُ تلكَ الليلةَ يقظاً حتّى الصباح..

هذهِ اليقظةُ المستفزّة ذكرتني بالسهرِ الجامحِ ليلةَ تحرير مدينة (الفاو)...

كنتُ مع الذينَ عبروا القناطرَ أو الجسورَ الصغيرة لاختراق ساترِ العدوّ.. الذي وضعَ في مدخلِ كُلِّ معبرٍ رشاشةً تصطادُ برصاصها المجنون كُلَّ من يحاولُ العبور باتجاههم.. وقد بذلنا بطولاتٍ نادرةً لا تُصدَّقُ للقضاءِ على أعدادِ هذه الرشاشات...

حتّى اجتزنا الساترَ المعادي لنصلَ إلى الهدف..

فيما حقّقت محاورَ القتال الأخرى وببطولاتٍ نادرةٍ أيضاً أهدافَها المرسومةَ بدقَّةٍ وتفانٍ وإخلاصٍ وتضحية.. وكانَ الصباحُ عراقياً صافياً في (الفاو) التي مازالت حتّى الآن تحتفظُ بزهورِ الشهداء العبقة وأريج دمائهم وصور بسالتهم.

- 8 -

قرّرتُ الذهابَ ثانيةً إلى بيتِهِ، إلى بابِهِ الأزرقِ الصارخ.. إلى تلكَ القريةِ الهادئةِ التي يخترقُها بشراسةٍ الشارعُ العامُّ الرئيسيّ الذي يربطُ بين بغداد والبصرة..

ربّما لم أنتبهْ لبعضِ التفاصيل في هذا المكان.. وربّما سأكتشفُ في زيارتي الجديدةِ أشياءً تُضافُ إلى معلوماتي وقد توصلُني إلى حلٍّ ما للَّغزِ الذي يؤرّقني..

ربّما فاتتني ملاحظة بعض التفاصيل المهمّة في داخل البيت أو في المنطقة التي يقعُ فيها.. وربّما حدَثَ أمرٌ آخر يؤكِّدُ علاقةَ الرجلِ الغريب بذلك المكان!

اتفقتُ مع سائقِ سيّارةٍ أجرةٍ على أنْ ينقلَني إلى المكانِ المطلوب، وأنْ ينتظرَني على رصيفِ الشارع العام، ريثما أُنهي العمل الذي أنا بصددِ إنجازِهِ في تلك المنطقة، وأخبرتُهُ بأنَّ مدّةَ انتظارِهِ لن تزيدَ على النصفِ ساعة حتماً..

وقد لاحظتُ حيرةَ السائقِ في أمري وهوَ يتأمّلني متسائلاً في قرارةِ نفسِهِ عن جدّيتي في هذهِ الرحلة.. وحاولَ طوالَ الطريق أنْ يستدرجني لمعرفةِ سرِّ رحلتي دونَ جدوى.. عند وصولِنا، طلبتُ من السائقِ التوقُّفَ قريباً من المكان الذي أنوي زيارتَهُ.. فتوقّفَ على بُعدِ خمسين متراً من بيتِ الرجلِ الغريب، وطلبتُ منهُ المكوثَ في سيارتِهِ وانتظاري..

ذهبتُ مشياً إلى البيت.. تلفتُّ مرتين لأرى السائقَ وقد زرعَ عينيهِ إثْرَ خطواتي وقدّ قتلَهُ الفضولُ لمعرفة السر العجيب لرحلتي هذهِ..

وصلتُ البيتَ وقد شعرتُ بأنّهُ ازدادَ إهمالاً وعزلةً وتراكمَ الصدأُ على السلسلةِ الحديدية التي تمسكُ بالقفلِ الضخمِ، الأشياءُ كما هي.. فاجأني طائرٌ محلّقٌ من داخلِ البيت صافقاً بجناحيهِ.. لم أتبيّنْ ماهيّةَ هذا الطير..

أطللتُ برأسي من وراء السياج... الفوضى ذاتها، ولا دليل على وجود أيِّ نوعٍ من الحياة في هذا المكان الذي يبدو منعزلاً منذُ قرونٍ..

تجوَّلتُ قريباً من البيت، تأمّلتُ البيوتَ المحيطةَ بهِ، الأبواب والشبابيك التي تعلنُ الفقرَ وتتبنّاه، والأطفال بصخبهم وألعابهم وهم يرتدونَ دشايشَ ملوَّنةً حالتْ ألوانُها وهي ملطّخةٌ بالطينِ، وهم يتصايحونَ مع بعضهم البعض.. استغربوا وجودي قربهم وأنا أنظرُ إلى الأشياء بتفرُّسٍ عميق..

المهم، لم أُلاحِظْ شيئاً يجلبُ الانتباه في كلِّ ما رأيتُ، وقد غادرتُ المكانَ بهدوءٍ لأجدَ السائقَ بانتظاري، وعُدنا إلى المدينةِ..

في الطريقِ حاولَ ثانيةً أن يستدرجني للحديثِ عن مهمّتي، مع إعلانِهِ التمنيات القلبيّة في أن تكونَ قَدْ انقضتْ بالخيرِ والسلامة!

وفي كلِّ سؤالٍ نابعٍ من فضولِهِ، أقدِّمُ لهُ إجابةً مموَّهةً تزيدُ من حيرتِهِ!، في أغربِ "أُجرةٍ" في حياتِهِ حتّى الآن . حسب اعترافِهِ . أو حسب . صرخةِ فضولِهِ . التي أطلقَها عليَّ في اللحظةِ التي سلّمتُهُ أجرتَهُ وودّعتُهُ..

لم أخبرْ أحداً بهذهِ الزيارةِ، واكتفيتُ من تأكيدِ قناعاتي حولَ الاستنتاجات التي حققّتْها زيارتي الأولى لهذا البيت المهجور الذي كانَ ملاذاً لي في يومٍ ما!.

وبقيتُ منتظراً زيارةً جديدةً من الرجلِ الغريب ربّما تتضمّنُ إجاباتٍ تنطلقُ من رحلتي اليائسةِ إلى البيت..

وبعد انتهاء رحلتي وعودتي إلى مدينتي مع السائقِ المذهول! انتهزتُ الفرصةَ لقضاءِ مُدّةٍ قصيرةٍ في عالم مدينتي وإطفاء بعضِ الشوقِ لمرتعِ طفولتي وصباي وشبابي ووثوبي في عوالمِ الإفصاحِ الأوّل عن ذاتي، تجوّلتُ في الأزقّةِ..

وبحثتُ في المقاهي عن وجهٍ أعرفُهُ، عن صديقٍ مازالَ معتصماً في إحدى الزوايا التي كنّا نرتادُها، في أيّامِ الإجازات أذهبُ مباشرةً إلى (مقهى الحاج محمود) التقي فيهِ بلا موعدٍ مسبقٍ مع عددٍ من أصدقائي لنحتفيَ ببعضنا، نسألُ عن أخبارِ الآخرين من الأصدقاء.. عمّن جاء أو رحلَ أو عمّنْ جُرِحَ أو

استشهدَ..

في إحدى المرّات التقيتُ (منصوراً)، كانَ يجلسُ وحدَهُ في المقهى، وفاجأنا القصفُ المعادي الشديد على المدينةِ، انزوينا في مكانٍ آمنٍ داخل المقهى، نتحدّثُ عن الثقافةِ والأدبِ ونستعرضُ أسماءَ أصدقائنا.. ووصلنا إلى اتفاقٍ جنونيٍّ هو الذهابِ سيراً من (المقهى) في (محلة الجمهورية) إلى (محلة الحكيميّة) التي تبعدُ أكثر من خمسمائة متر لرؤية صديقنا (رعد) في بيتِهِ..

ذهبنا تحتَ وابلِ القصف، نتخفّى وراءَ الجدرانِ وبينَ الحُفرِ حتّى وصلنا إليه.. لنصيبَهُ بالدهشةِ وهو يرانا في هذا الظرفِ العصيب...

. معقولة!..

قالها غير مصدّقٍ، وسحبنا سريعاً للدخولِ إلى بيتِهِ والاختفاء عن القذائف والشظايا المجنونةِ..

جلسنا معه ساعاتٍ بعدَ القصفِ نتبادلُ الحديثَ عن الحربِ والأصدقاء وآخر القراءات والنصوص الأدبيـة.. لم تكنْ (الفاو) حينَها قَدْ عادت إلى أحضانِ الوطن.. وكنتُ في موقعي القديم في القاطع الأوسط أواصلُ أداءَ خدمتي الإلزامية في صفوفِ الجيش..

بينما يواصلُ (رعد) دراستَهُ العليا لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي...

حدّثتُهُمْ عن الجبهاتِ وطقوسِها وعن رفاقي هناك، عن مصيرنا المشترك ومدى التعاونِ اللاّمتناهي بيننا، حدّثتُهُمْ عن وحشةِ الليلِ التي تتفاقمُ فيه شهوةُ الموتِ وانتظارنا المتوقّد لسهامِهِ..

عن القمرِ والنجومِ والترقُّب..

عن اشتياقِنا للنساءِ والمدنِ وأمنيات السير بكامل قاماتنا تحتَ الضوءِ بلا تهديدٍ من قنّاصٍ أو من قذيفةِ هاونٍ أو شظيّة تائهة!

حدّثتُهم عن بعضٍ ما جرى لي أثناءَ مشاركتي في واجبات الدوريّةِ القتاليّة أو التعرُّض المباشر لقطعات العدوّ.. أو للهجومات الكبيرة التي تشبهُ الكوابيس الثقيلةَ..

حدّثتُهُمْ عن غيابِ الرفاقِ المفاجئ إثر شظيّةٍ أو رصاصةٍ أو قنبلةٍ مراهقة!

وبعدَ أن افترقنا.. لم نجتمعْ نحنُ الثلاثة.. حتّى الآن...

تفرَّقْنا في مشاربِ الحياة...

فقد حصلَ (رعد) على شهادة الدكتوراه ورحلَ إلى قطرٍ عربيٍّ لممارسةِ التدريس..

وحصل (منصور) على شهادة الدكتوراه أيضاً وظلَّ متمسكاً بسكنِهِ في (البصرة) يمارسُ التدريس في جامعتها.. فيما أقمتُ في (بغداد) للكتابةِ والعمل والحياة!.

- 9 -

مضى أكثر من أسبوعٍ على موعدِ زيارتِـهِ المعتـاد، الأمرُ الـذي أقلقنـي، ذلك إنّنـي توقّعتُ حلولاً لبعضِ الأسئلةِ التـي تفاقمت فـي زيارتِـهِ المنتظرة، لأنّـها ستأتـي بعد حادثِةِ ذهابي مرّةً ثانية إلـى البيت الذي التقينا فيه أوّلَ مرّةٍ..

في اليوم الثامنِ بعدَ الموعدِ لم أستطع النومَ في الليل.. وعندَ تسرُّبِ الفجرِ أبدلتُ ملابسي وخرجتُ إلى المدينةِ التي مازالت مستسلمةً لخدرِ الفجرِ، الشوارعُ فارغةٌ إلاَّ من القططِ وأنقاضِ ضجيجِ السوق وبعض المتسكّعين الذين تمدّدوا في الزوايا هنا وهناك..

مررتُ على تمثال (معروف الرصافي) المتسائل بسخريةٍ حزينةٍ! وتوّجهتُ إلى الشاطئ المحاذي لنهوض "جسر الشهداء"، نزلتُ بصعوبةٍ إلى الجرفِ بسبب عدم انتظام الرصيف وشدّة انحدارِهِ، جلستُ قربَ المياهِ، مددتُ ساقايَّ في مياهِ الجرفِ الباردة، واغترفتُ بكفيَّ قليلاً من الماء غسلتُ بها وجهي، بينما بدأت الشمسُ بالارتفاع الخجول، هناك أسرابٌ من النوارسِ البيض المحتفلة بلثغةِ الصباحِ الأولى، وهناكَ زوارقُ صغيرةً يتقرفصُ في أجوافها الصيّادونَ وهم يجمعونَ نثاراتِ شباكهم المنصوبة في الليل لجمع الصيدِ من أسماكِ النهر اللذيذة الغالية الثمن..

تعبُ السهرِ ونسائمُ الفجرِ منحاني لذّةَ استرخاءٍ آسرةً غفوتُ على إثرها..

شعرتُ بتحرُّرٍ غريبٍ وأنا أرى سرباً من أسرابِ النوارسِ تتوجَّهُ نحوي، ثمَّ تجمّعتْ حولي وحملتني، شعرتُ ببساطٍ أبيض من الأجنحةِ المتلاحمة يمتدُّ تحتي.. وأنا أحلِّقُ فوقَ هدوءِ مياه النهرِ.. وأرى الزوارقَ والصّيادينَ والأمواجَ المتناسقةَ في بوجهِها الصافي.. مررتُ من تحتَ الجسرِ..

إلى أينَ تأخذُني أيُّها البساطُ الأبيضُ الطائر؟

إلى أينَ أيتُّها النوارسُ؟

- إلى الجانبِ الآخرِ من النهر (جاءني الصوتُ من مكانٍ ما لم أستطعْ تحديدَهُ)!

لمحتُ من عليائي شيخاً ينزلُ إلى جرفِ النهرِ، إنّهُ يتوضّأُ لأداءِ الصلاة.. يا إلهي إنّهُ صاحبي! ماذا يفعلُ هنا؟

لمحتُهُ وأنا في وسطِ النهرِ، تمنيتُ أن أذهب إليهِ، أنْ أركضَ سريعاً باتجاهِهِ.. أنْ أُحدِّثَهُ هذهِ المرّةَ، فأنا أستطيعُ الآنَ الكلامَ في حضرتِهِ، هكذا أحسستُ، ولكنْ كيفَ لي أن أوجِّهَ دفّةَ البساطِ الطائرِ الذي يحملني باتجاهِهِ؟..

حاولتُ مناداته بصوتٍ عالٍ سيصلُ إلى مسامِعِهِ حتماً في هذا الهدوءِ السحريّ.. لكني لم أستطع إطلاقَ صوتي، وهاهو ينسحب بهدوءٍ إلى كتلةِ القصبِ القريبة من النهرِ ويغيبُ في ثناياها ليصعدَ . بالتأكيد . إلى رصيفِ الشارع المحاذي للنهرِ من ضفتهِ الثانية..

هاأنذا أفقدُ أثرَهُ، شعرتُ بالأسى الشديد، وسحبتُ نفسي تدريجيّاً من البساط، وأطلقتُ أقدامي في الفضاءِ فوقَ النهر، لأصحو بفزعٍ وقد وجدتُ نفسي مستلقياً في المياهِ الضحلةِ على جرفِ النهر، يا لهُ من حلمٍ جميلٍ، ويا لها من نهايةٍ ساخرة!..

انسحبتُ بسرعةٍ كي لا يراني أحدٌ في هذا الصباح بملابسي المبلّلة، وحذائي الملطّخ بالطين وعينيَّ الحمراوين... عُدتُ متلصّصاً إلى غرفتي في الفندق، استبدلتُ ملابسي بعد أن اغتسلتُ جيّداً لأنامَ نوماً عميقاً..

سرعانَ ما أطلَّ عليَّ الرجلُ الغريبُ مبتسماً، حاولتُ أن أصرخَ بوجههِ فلم أستطعْ، أحسستُ مرّةً أُخرى بأنني مقيد لا أستطيعُ الكلامَ ولا الحركة، تجوَّلَ بقربي

جيئةً وذهاباً وأطرقَ قليلاً ثمَّ رفعَ رأسَهُ وبعينين برّاقتين قال لي:

. لا تذهبْ ثانيةً إلى ذلك البيت، لأنّك قَدْ تتعرَّضُ لأذىً لا أريدُهُ لكَ، واتركْ الأسئلةَ التي تحاولُ إطلاقَها عليَّ، أنا لستُ غريباً!.. ألم تَرَني هذا الصباح؟ لقد تأخّرتُ هذهِ المرَّةَ بسببِ رحلتّكَ المجنونة التي لا أحبّذُها إلى ذلك البيت البعيد.. وإذا تكرّرتْ هذهِ الرحلة سوفَ انقطعُ عنكَ نهائياً، ولا تظُنّ انقطاعي أمراً سهلاً عليكَ بعد أنْ عرفتني، إنّهُ سيعرّضُكَ إلى متاعبَ لا تتوقّعها...

ثمّ غابَ عني، يا للهول!.. ما الذي يحدثُ؟.. لقد ولّدت الأسئلةُ القديمةُ سلسلةً من الأسئلةِ الجديدةِ وفتحت أقبيةً لحيرةٍ لا قرارَ فيها وولّدتْ هذهِ المرّة رغبةً حقيقيةً في التخلُّصِ من هذهِ الرابطةِ العجيبة!....

عُدتُ إلى النومِ بعد أنْ شعرتُ ببوادر حُمّى، وصحوتُ بعدَ الظهيرةِ على طرَقاتٍ قويّة على بابِ غرفتي، نهضتُ بسرعةٍ وارتباكٍ وفتحتُ الباب بقلقٍ، أطلَّ عليَّ عاملُ الفندقِ قائلاً أنَّ هناك نداءً هاتفياً يطلبني من البصرة..

سارعتُ بارتداءِ ملابسي والنزول إلى الاستعلامات التي يستقرُّ بها جهاز الهاتف الوحيد.. رفعتُ السّماعةَ الملقاةَ بعبثٍ على المائدة الضخمة، وسمعتُ من الطرفِ الآخر صوتَ أخي الأصغر (حازم) يطلبُ منّي ضرورة المجيء إلى البصرة لأنَّ عمّي (وهو الحيُّ الوحيدُ من أعمامي) قَدْ توفي صباحَ هذا اليوم!..

. حسناً.. سآتي.. البقاء في حياتكم..

وأغلقتُ سمّاعةَ الهاتف...

لاحظَ صاحبُ الفندقِ الجالس خلفَ مكتبِهِ تعبي وحيرتي ومن المفردات القليلةِ التي ردّدتُها على مسامِعهِ من خلال حديثي عبر الهاتف استنتجَ إنَّ وفاةً ما قَدْ ألّمتْ بأحد اللذين يهمُّني أمرُهم..

فأجبتُهُ باقتضابٍ حزينٍ: إنّهُ عمّي...

ثمَّ طلبتُ منهُ تسليفي مبلغاً من المال . يُضاف إلى قائمةِ حسابي التي لديه والتي ستسدّدُ حتماً! . من أجلِ الذهاب إلى البصرة وحضور مجلس الفاتحة..

فاستجاب لطلبي سريعاً وأعطاني المبلغ المطلوب لأنَّ في الأمرِ ثواباً.. كما قال..

تجمـعُ مجـالسُ الفاتحـةِ . دائمـاً . جميـعَ الوجـوهِ الغائبـةِ من الأهـلِ والأقربـاء والأصدقاء... وهاأنذا ألتقي بأصدقاءٍ لم أرَهم منذُ ثلاثين عاماً، افترقتُ عنهم بعد انقضـاء السـنة الدراسية الوحيدة التي درسـتُ فيها فـي قريتـي.. تـذكّرتُ معهم أيّامَ الفيضـانِ وعسـرِ الظـروف الدراسـيّة ووجـوه بعـض المعلّمـين الـذين فـارقَ بعضــهم الحياة تاركينَ في نفوسِنا آثاراً إيجابيّةً كبيرةً....

سرقتُ نفسي من ضجيجِ التجمُّع في أحد المساءات، وتسللّتُ إلى كتفِ نهرِ الفراتِ القريبِ من القريةِ، لأتأمّلَ ما تغيَّر فيهِ ولأجلسَ قليلاً على جذعِ نخلـةٍ مرميٍّ على السدّةِ الترابيّةِ العالية متأمّلاً فوضـى القصبِ والبرديّ و(الجولان) التـي تفصلُ السدّةَ عن مياه النهر..

المنظرُ يـوحي بالعزلـةِ والإهمالِ ولا أثرَ للحيـاةِ التي كانت صـاخبةً يومـاً مـا فيـه، حيثُ زوارقُ العبـور و(المعيبـر) الـذي ينقلُ الأشـخاصَ والبضـائعَ بمـرحٍ مـن ضـفةٍ إلـى ضـفةٍ أخـرى مـن أجلِ أنْ يبتـاعوا حاجيـاتهم أو أن يبيعـوا بعضـاً مـن منتجاتِهم اليدويّة البسيطة..

تذكّرتُ مهابـةَ الزوارقِ الكبيرةِ التـي تسيرُ فـي وسطِ النهر وهـي تحملُ عدداً كبيراً من الرجالِ شبه العُراة وهم يحملون (المجاذيف) الضخمة وينزلونها فـي الماء لتحريكِ الزورقِ كـي يشقَّ المياه العميقة.. وهناكَ بعضُ الزوارق تستخدم الأشرعةَ تعينُها الريحُ في مسيرتِها...

استعدتُ صباحاتِ العيدِ، حيثُ تُفرشُ في (صرائفنا) . المبنيّـةِ من القصـبِ والبـردي . قطـعُ السـجادِ النظيفـة وتعلّقُ أعـوادُ البخـورِ فـي الأعمـدةِ التـي تتوسّـطُ (الصـرائف)، نلبسُ دشاديشنا الملوّنـةَ الجديـدةَ و(نعايُد) الآبـاء والأمَّهـات والأخـوال والأقرباء ويقدّمونَ لنا (عيديّةً) نطيرُ فيها من الفرحِ وهي عبارة عن قطعةِ نقودٍ من فئةِ الخمسين أو المائة فلس!

ثمَّ يصطحبنا آباؤنا إلى النهر حيثُ (المعيبر) المرح الذي يبدو في مثلِ هذا اليوم مثلَ مهرِّجٍ يبذلُ قصـارى جهدَهُ لإضـحاكنا ثـمَّ ينقلُنا بزورقِـهِ الصـغير بعد أن نضـاعف لـه الأجرة إلى (المدينـة) الصـغيرة ذات السوق المزدحم دائماً، لنجلس في مطعمها (الشهير) بينَ أبنـاءِ قريتنا لنأكلَ الكبـابَ الذي ارتبطَ بأذهاننا ارتباطـاً قويّاً

بزيارةِ المدينة!

ثمَّ نجلسُ في المقهى القريب لاحتساء (الحامض) وسماع أغنيات العيد بصوتٍ عالٍ من المذياع الضخمِ الذي يقبعُ في رفٍّ مرتفعٍ في إحدى زوايا المقهى!

بعدَها نقومُ بجولةٍ في السوقِ لنبتاعَ دجاجةً حيّةً نأخذُها معنا لذبحها والغداء بلحمها في اليوم الثاني من العيد.

وبعد الظهرِ يشتدُّ هوسُنا للذهابِ إلى الأراجيحِ المصنوعةِ بين جذوعِ أشجار النخيل العالية المتقاربة.. نتأرجحُ في حبالِها حدَّ الإعياءِ ثمَّ نعودُ مبكّرين إلى خفوتِ الضوءِ في أجوافِ بيوتنا العائمة لننامَ سريعاً استعداداً لصباحٍ قادمٍ تتكرَّرُ فيهِ مفرداتُ الحياةِ اليوميّة المألوفة!

أجملُ ما في القريةِ هدوءها، وأطيبُ ما فيها هواؤها النقيُّ المتسرِّبُ من بينِ سعفاتِ النخيلِ.. تنشّقتُهُ بشوقٍ وأنا أجلسُ على الجذعِ المُلقى على سدَّةِ النهر، ونزلتْ دمعات مفاجئة من عينيَّ وأنا أعيدُ شريطَ الذكريات الذي أشعرني بحاجةٍ إلى العودةِ على تلكَ البراءةِ غير المتناهية والحياة البسيطة السابحةِ بالودِّ والأُلفةِ وأرقى التعبيرات الإنسانية..

كانَ الشبابُ بيننا . آنذاك . مغرمينَ بسماعِ أغنيات "أم كلثوم" الصادحة في ليالي (الخميس) من كلِّ أسبوعٍ وتراهم يسهرونَ إلى ساعةٍ متأخّرةٍ من أجلها، بعضُهم يجتمعُ مع أصدقاءٍ آخرين حولَ مذياعٍ واحدٍ كبير والبعضُ الآخر يفضِّلُ الاستلقاءَ في فراشِ نومِهِ ووضع المذياع الصغير إلى جانبِهِ مع تدخينِ سيجارةٍ أو اثنتين بمنتهى السريّةِ لأنّها تمثّلُ انتهاكاً صارخاً لوصايا الآباء الصارمة!

- 10 -

هل تغيّرتْ حياتي حقّاً؟

هل بدأت الأشياءُ تأخذُ معاني وتعبيراتٍ مختلفةً؟!

أكادُ أصدِّقُ.. إنَّ ما يحدثُ لي ينتمي إلى عالمِ الخوارقِ التي لم أكنْ أؤمنُ بها قبل الذي حدث لي..

بدأتْ عزلتي تزداد، وأدمنتُ قراءة الكتبِ والمطبوعات التي تُعنى بدراسةِ الخوارق (الباراسايكولوجي)، علّني أجدُ تفسيراً مقنعاً لما يحدث..

تعرَّفتُ على معلوماتٍ جديدةٍ وحالاتٍ كنتُ في ما مضى أعدُّها أوهاماً أو من بناتِ الخيال القصدُ منها الإثارة..

عرفتُ الكثيرَ من التسميات والمصطلحات إلاّ إنَّ حيرتي ازدادت وأنا أبحثُ عن تفسيراتٍ . أية تفسيرات . لزيارات الرجلِ الغريب!

ثمّ.. كيفَ يحصلُ هذا الانتظام في مواعيدها؟ هل هو انتظامٌ ذهنيٌ وقّرهُ انشغالي النفسي بالأمرِ ليكونَ بهذا الشكل؟ أم هو نوعٌ من العلاقاتِ الغرائبيةِ التي تتعلّقُ بهيمنةِ عالمِ الغيبيّات وفكرةِ اختراق العالم الآخر، تُرى أيُّ عالمٍ آخر أقصدُ؟!... عالم الأثير والكائنات الأُخرى التي طالما سمعنا وقرأنا عنها؟!

تذكّرتُ جملةً من حوارٍ ورد في أحد الأفلامِ الأجنبيّةِ التي تتناولُ موضوعة "الأشباح" تقولُ الجملةُ على لسانِ إحدى بطلات الفيلم "الموت.. هو انتقالُ من وعيٍ إلى وعيٍ آخر"!..

تُرى كيفَ نتسلَّلُ إلى مجهولِ الوعي الآخر؟!

هل هناكَ نوافذُ أو أبواب تؤدّي إلى ذلك الوعي غير فكرة الموت الذي هو "الحقيقةُ الوحيدةُ" كما قيل عنها؟! لا أحَد يجيبُ على هذه الأسئلةِ التي هي أكثر تعقيداً وإيهاماً.. وأنا أزدادُ حيرةً.. وتأمُّلاً.. وبحثاً..

أبدلتُ كل الأماكنِ التي أرتادُها لكي لا يراني أحدٌ أعرفُهُ ويعرفني!.. ولا أعرفُ لماذا اتخذتُ هذا القرار الغريب!

المقهى.. غير المقهى الذي كنتُ أرتادُهُ ويعرفني زبائنُهُ وعاملوهُ وأصحابُهُ وحتّى المتسوّلون الذين يتردّدونَ عليهِ.. كما أبدلتُ سكني بالفندق بفندقٍ آخر أكثر بؤساً..

أصبحتُ وحيداً.. تماماً!

أجلسُ بمفردي في مقهىً لا يعرفني فيهِ أحدٌ، أطلبُ شاياً ثم أركيلة وأظلُّ جالساً ساعاتٍ حتّى يحينَ موعدُ دوامي اليومي . الذي حوّلتُ توقيتَهُ إلى المساءِ . لأذهبَ وأقضيَ معظمَ ساعاتِ الليلِ فيهِ، ثمَّ أنحدرُ قبلَ إطلالةِ الفجرِ إلى غرفتي في الفندق..

اشتدَّ حدسي تجاهَ معرفةِ الأشياء المبهمة، وأصبحتُ أشيرُ إلى أحداثٍ سوفَ تقعُ من خلالِ تبياني لها عبرَ صورةٍ مكثّفةٍ غريبةٍ يشرعُها رأسي.. ويجعلني التركيز الشديد عليها قادراً على تسمية ماهيتها..

صرتُ أحلمُ أحلاماً كثيرةً تتجسَّدُ مرادفاتها في اليومِ التالي أو اليوم الذي يليه!.. ما جعلَ الحلمَ العابرَ في منامي في ساعات الليل القليلة هو الذي يقرّرُ حماستي لليومِ التالي، وفي صباحاتٍ كثيرةٍ أنهضُ من النومِ كئيباً إثرَ حلمٍ يشيرُ إلى حدوثِ شيءٍ مزعجٍ!.. لا أدري طبعاً ما هو وكيفَ سيحدثُ، وبالفعل يعترضني في ذلك اليوم أمرٌ مزعجٌ وعندَ انتهاء غمّتهِ وفراغي من معاناتِهِ أحمدُ الله كثيراً لأنني وضعتُ احتمالَ السوءِ الأكبرِ فيه!

وعلى العكس من ذلك تراني سعيداً مبتهجاً في اليومِ الذي يلي رؤيتي لحلمٍ يشيرُ إلى حدوث أمرٍ سارٍ!

قرأتُ مؤلفاتٍ عن (تفسير الأحلام) ولم أقتنعْ!

وقرأتُ مؤلفاتٍ أخرى عن تحليلها النفسي ولم أقتنعْ أيضاً! وأصبحتُ أسيرَ حالاتٍ غرائبيّةٍ..

في الجنوب.. في البصرة.. في قضاء (المدينة).. في قرية (الخاص) على الطرفِ الآخرِ من النهرِ رؤى آباؤنا لنا عن سدرةٍ معمّرةٍ كثيرة التشعُّباتِ في أغصانِها.. هذهِ السدرةُ لا يجرؤ أحدٌ على المرورِ من أمامها أثناءَ الليل، لأنَّ سكانَ البيوتِ القريبة منها، تلك البيوت الغارقة في غابةٍ عاليةٍ مكتظّةٍ من النخيلِ يسمعونَ في الليلِ أصواتَ نساءٍ يبكينَ بعويلٍ مخيفٍ مشوبٍ بأصواتٍ مبهمةٍ متداخلةٍ، ويقالُ عن السدرةِ أيضاً، أنَّ أحدَ الحمقى أرادَ أنْ يقطعَ غصناً منها في وضحِ النهارِ، إلاَّ أنهُ فوجئَ بنزفٍ دمويٍّ يخرجُ من الجرحِ الذي أحدثَهُ في جسدِها، وقيلَ إنهُ رأى وجوهاً وأشكالاً بشريّةً تطلُّ عليهِ ويداً ضغطتْ بقوّةٍ على رأسِهِ الأمرُ الذي أفقدَهُ عقلَهُ، وهاهو.. منذُ ذلك الحين وهو يتنقَّلُ بينَ الأزقّةِ والشوارع بثيابٍ رثّةٍ ممزّقة والصغارُ يضربونَهُ بالحجارة ويجرونَ خلفَهُ وهم يصفّقون ويمرحونَ ساخرين منهُ!

بالطبعِ، كانت جدّاتُنا يجمعننا حولَ المواقدِ في ليالي الشتاءِ الطويلةِ ويقصصنَ علينا حكايا عجيبةً تتعلّقُ بالمخلوقاتِ الأُخرى والعوالم التي لا نستطيعُ إدراكها..

وعن الرجال الذين يتزوّجونَ الجنيّاتِ..

وعن النساءِ اللائي يتزوجونَ رجالاً من الجنِّ وعن أطفالهم وعوائلهم وقبائلهم..

ويحذرننا من الظلام ومن الذهاب إلى تشابك النخيل في الليل لأنّنا قَدْ نُصابُ بأذىً من قبلِ هذه المخلوقات.. ويوردنَ لنا الكثيرَ من الحكايا الخرافيَة، وهي حكايا مسلّية . على أيّةِ حالٍ، تشبهُ حكايا "ألف ليلة وليلة" المعروفة بسعةِ الخيال والتعرُّض للخرافاتِ والخوارق من أجلِ تحقيقِ متعة أكبر!

تُرى أينَ ذهبَ تشابكُ تفكيري؟

وكيفَ لي أن أتعاملَ مع لغزٍ يشبهُ الحكايا التي كنتُ أغرقُ في تأمُّلِ أجوائها وأنا في سهلِ طفولتي؟ تذكّرتُ الفجرَ الذي قضيتُهُ على شاطئِ النهر، ومشهدَ القصبِ والبردي الذي شاهدتُهُ من على بساط الحلمِ الطائرِ بأجنحةِ النوارسِ، والرجل الغريب الذي توضّأ واختفى..

وقصدتُ ذلك المكان..

كنتُ في خشيةٍ من عبثِ محاولتي هذهِ، وعبرتُ الجسرَ مشياً وأنا أتابعُ المياهَ التي انحسرتْ كثيراً وبقع الأرض الخضراء البارزة وسط النهر.. والباحثينَ عن وهمٍ

يتعلَّقُ بانهماكهم بتصفيةِ المياهِ بالغرابيلِ للعثورِ على حبّاتٍ منسيّةٍ من الذهب، بسببِ قُربِ جرفِ النهر من شريطِ محلات الصاغة المنتشرين في "شارع النهر" الشهير في أزيائِهِ وصاغتِهِ وعدد الفتيات الكبير الذي يغرقُ فيه الشارعُ وبالذات في الأُماسي الربيعيّةِ البغداديّة الباردة..

اقتربتُ من الطرفِ الثاني للجسرِ وأطللتُ على التمثالِ الشامخ لشهيدٍ معروفٍ.. وحرفتُ خطواتي إلى اليسار حيثُ اتجاه هدفي القريب..

مررتُ على باعةِ السمكِ الحيّ وهم يتنافسونَ في ما بينهم ويتغامزونَ بلغةٍ لا يفهمها غيرُهم، توجّهتُ إلى الرصيفِ الإسمنتي الواطئ الذي يؤدّي إلى النهر.. ومشيتُ مسافةً تزيدُ على المائة كيلومتراً حتّى وصلتُ إلى مدخلٍ أستطيعُ النزولَ منهُ إلى الجرف وإلى الأحراشِ الصغيرةِ هناك حيثُ القصب المحتشد بفوضى والذي شاهدتُ فيهِ الرجلَ الغريب وهو يتوضّأُ..

مشيتُ في طريقٍ طينيٍّ كلّما توغّلتُ فيهِ باتجاه النهر ازدادتْ قاماتُ القصبِ المكتظّ ارتفاعاً.. حتّى ضاعت قامتي في القصبِ ثمَّ أطللتُ على النهرِ من خلال الفسحة التي تفصلُ بين جانبي كتلة القصب.. لفتَ انتباهي صوتُ حركةٍ قريبةٍ، ظننتُها صادرةً من كلبٍ أو قطٍّ أو أيّ حيوانٍ تسلَّل إلى هذهِ العزلة.. وحينَ تطلّعتُ إلى جهةِ الصوت شاهدتُ امرأتين تلفعتا بعبائَتين وهما جالستانِ على صخرةٍ كبيرةٍ استقرّت بقوّةٍ في طيفِ الجرف...

وقد امتدّتْ سيقانُ المرأتين في الماء.. تواريتُ سريعاً بين أعواد القصبِ لأرى ماذا تفعلُ هاتان المرأتان!

رأيتُ إحداهُنَّ تتخلّى عن عباءتِها، وتكشفُ عن قطعةِ قماشٍ لفّتْ فيها طفلاً ـ على ما أظنُّ ـ فيما أخرجت المرأة الثانية إناء ألمنيوم متوسّط الحجم (صينيّة)، احتضنت المرأةُ قطعةَ القماشِ التي تضمُّ طفلاً وقبَلتْها، ثمَّ تركتْها مع تيار الماءِ الجاري بهدوء ودفعتْها برفقٍ بيدها..

ووضعت المرأة الثانية الإناء المصنوع من الألمنيوم مع تيار الماء أيضاً بعد أن ثبتتْ فيهِ بواسطة كتلةٍ من الطين عدداً من الشموعِ وأعواد الآسِ وقبضاتٍ من الحنّاءِ وقطع الحلوى وقد أشعلت الشموع ودفعت الإناء في انسياب الماء الهادئ..

ثمَّ غرقتْ المرأتان بنوبةٍ عميقةٍ من البكاء بعد أنْ تحاضنتا بلهفةٍ!..

خمّنتُ أنّها عمليةً تاليةً لخطيئةٍ، توبةً وطلبُ غفران...، أو هي طقوسٌ متّفقٌ عليها تتعلّقُ بمشكلاتٍ نسائيةٍ من الصعب الاستدلال عليها بشكلٍ دقيق..

أو إنّهُ الحبُّ.. وأيُّ حبٍّ؟

رأيتُ المرأة التي رمت قطعة القماش التي تضمُّ طفلاً تسحبُ . وهي جالسةً . من خلفها حقيبةً تبدو مليئةً ثمَّ حملتْها وطوّحتْ بها بكلِّ ما تملكُ من قوّة إلى النهر.. لتنسابَ بهدوءٍ خلفَ قطعة القماش و(صينيّة) الشموع والحنّاء والآس والحلوى والطين..

بقيتُ في مخبأي أراقبُ هذهِ العملية السريّةَ الغريبةَ وأسترجعُ صوراً وقصصاً في الخطيئةِ والحبِّ وجنونِهِ وتذكّرت زميلاً لي في الدراسةِ الجامعيةِ كانَ اسمُهُ (زامل) وقصّة حبِّهِ الأشهر بيننا لزميلتنا (المياء)..

تلكَ القصّةُ التي مازال جميعُ زملائنا حتّى الآن يتذكّرونَ بحزنٍ وألمٍ تفاصيلها..

إذ أنَّ (زامل) شابٌ ريفيٌّ ذكيٌّ مقبول الشكل استطاعَ في الأيّامِ الأولى من عامِنا الدراسيِّ الأوّل أنْ يحظى باهتمامِ الأساتذة، والطلاب على حدٍّ سواء بسبب ذكائِهِ

والتزامه ومتابعتِهِ لمادّة الدرس وتحضيرِه الجيّد لها...

و(لمياء) فتاةٌ من بغداد جميلةٌ جدّاً وهادئةً وهي ذكيّةٌ ملتزمةٌ تسبقُنا جميعاً إلى الحلولِ الصحيحة أثناء توجيهِ سؤالٍ من الأستاذ إلى الطلبةِ أثناء المحاضرة، و(للمياء) ولعٌ شديدٌ في دراستِها وحرصٌ عالٍ على التفوّقِ فيها..

ولأنَّ (زامل) منافسُها الوحيد بيننا، فقد اقتربتْ منهُ ليجلسا متقاربين من بعضهما في قاعةِ الدرس، وحين يحينُ موعدُ الاستراحةِ بين محاضرتين يظلُّ كلاهما منهمكاً بمادّةِ الدرسِ ومناقشتها والتشاور حولَ حلولِ مسائلها الصعبة..

وحتّى في (نادي الطلاب) فقد كانا يجلسان معاً، ويشربان الشايَ معاً، ويتمشيانِ معاً، وبعدَ الانتهاء من المحاضراتِ يخرجانِ من الكليةِ معاً، يوصلُها (زاملُ) إلى مبنى القسم الداخلي الخاص بالطالبات ويواصلُ سيَرهُ المنتشي إلى مبنى القسم الداخلي الخاص بنا نحن الطلاب..

لا أحد مِنّا يعرفُ تفاصيلَ ما يدورُ بين طرفيِّ معادلة هذا الثنائيّ الرائع الذي تمنّى كلُّ طالبٍ منّا أنْ يكونَ طرفه الآخر!

ولأن (زامل) شابٌ ريفيٌّ قضى حياته كُلَّها بعيداً عن مخالطةِ الفتيات

والتحاور المباشر معهن والتعامُل بهذهِ الدرجةِ من التقارب.. فقد سقط بعنفٍ وقسوةٍ في حبِّ (لمياء)... ولأنَّ (لمياء) فتاةٌ بغداديّةٌ من عائلةٍ متفتّحةٍ وتعرفُ كيفيّةَ وحدودَ التعاملِ الطبيعيّ مع زميلها باعتبارِهِ رفيق دراسةٍ ولا يمكنُ لها أنْ تنظرَ إليهِ نظرةً خارجَ هذا التصوُّرِ المنطقيّ للعلاقاتِ الإنسانية في مثل هذهِ الظروف.

فقد ظلّتْ (لمياءُ) بعيدةً عن هذا الهاجس الذي لا يمكنُ لها أن تتوقّعَهُ من (زميلها) الشاطر الدؤوب (زامل)! الذي افترضَ إنَّ الوقتَ يمضي وعليه أن يحتويها مبكّراً لكي لا يأتي زميل آخر ويستحوذُ على قلبها ومشاعرِها!

فقد صارحها بحبِّهِ لها وعدم استطاعتِهِ النومَ في الليلِ لأنّهُ يفكِّرُ فيها، وهو مستعدٌ لأيِّ شيء من أجل حيازةِ رضاها وبالتالي السعي للاقتران بها على سُنّةِ الله ورسولهِ، وإنَّ أهلَهُ طيّبون وسيرحبونَ بها ويضعونها على رؤوسهم وفي عيونهم!

فُزِعتْ (لمياء) وهي تسمعُ مثل هذا الكلام، وأبلغتْهُ –فوراً وبلا تردُّدٍ– بأنّها لم تفكّرْ لحظةً واحدةً بمثلِ هذهِ الأمور، كما إنّها لا تسمحُ لهُ بهذا التصورُّ نحوَها، إنهُ زميلُها لا أكثر، وبسبب مصارحتِهِ وبوحِهِ لها بحبِّهِ، فقد قرّرتْ أنْ تبتعدَ عنهُ حتّى لا يتطوَّرَ الأمرُ، وحتّى لا يراها كذلك، لأنّها تستطيعُ المطالعةَ ومتابعةَ المحاضرات والدروس وحدها أو مع أيِّ زميلٍ أو زميلةٍ أخرى، هذا القرارُ دعا إلى زيادة جنون (زامل) في حبِّه لـ (لمياء)، وصارَ يضايقها في جميع الأماكن التي ترتادُها، في السوقِ مثلاً التقاها –ليست مصادفةً بالتأكيد –وأدّعى إنها مصادفةٌ جميلةٌ فعرضَ عليها مرافقتها ومساعدتها في حملِ حاجياتها، إلاّ أنّها اعتذرتْ منهُ بجفافٍ واضح...

وفي مبنى البريد في مركز المدينة حاولَ التحدُّثَ معها ولو لدقائقَ، فرفضتْ بشدّةٍ، ووصلَ أمرُ مضايقتِهِ لها إنّها اضطرّتْ إلى تقديمِ شكوى ضدَّهُ إليَّ بوصفي مسؤولاً للجنة الاتحادية الطلابيّة آنذاك، ودعوتُ (زاملاً) وتحدَّثتُ معَهُ بهدوءٍ ومحبّةٍ مبدياً لهُ وجهة نظري في أمرِ اندفاعِهِ واستفزازِهِ للفتاةِ التي شعرتْ بالخيبةِ إثرَ تغيير علاقة الزمالة البريئة الصافية إلى وهمِ حُبٍّ مازالت –وستبقى– تشعرُ إنّها بعيدةً عنهُ..

وعدني (زامل) وعداً مرتبكاً على إنهُ سيبتعدُ عنها طالما هي غير راغبة فيه، ولم يفِ بوعدَهُ طبعاً، لأنّها التجأتْ إليَّ ثانيةً وشكتْ منهُ بعصبيّةٍ هذهِ المرّة،

فاستدعيتُهُ ثانيةً وتحدّثتُ معَهُ بأسلوبٍ أكثر وضوحاً في قسوتِهِ، ووعدني ثانيةً ولم يَفِ أيضاً!

وكثرتْ الشكاوى في اللجنة الاتحاديّة، ورئاسة القسم، والعمادة، وازداد اهتمامي بحلِّ الموضوعِ، لتزدادَ لقاءاتي بـ (لمياء) الأمرُ الذي أثارَ حنقَهُ ضدّي، ولأنّه محبٌّ أعمى، فقد ذهبتْ بهِ الظنونُ المرضيّةُ إلى تصوُّرٍ مفادُهُ إنّها ربمّا تكونُ معجبةً بي!

حيثُ فاجأني في أحد الصباحاتِ بهجومٍ كلاميٍّ مبعثرٍ، لم أفهمْ منهُ سوى أنّهُ شديدُ الضيقِ منّي مع تكرارِ عبارة "مَنْ أنت... هاه؟!"..

وأخذَ (زامل) يقلِّدُني في أشياء كثيرةٍ –بعد أنْ عزّزَ ظنَّهُ بأنَّ (لمياء) معجبةٌ بشخصٍ مثلي، فقد حلق (زامل) شاربَهُ الضخم –لأنني كنتُ حينَها حليقَ الشارب– !

وأخذَ يرتدي الملابسَ الرياضيّة دائماً –مع أنهُ ليس رياضيّاً بل لأنني رياضيٌّ وفي أكثر من فريقٍ خاصٍ بالكليّةِ –وقد طلبَ أن يتمرَّنَ معنا في وحداتنا التدريبيّة علماً بأنّهُ لا يعرفُ من الرياضةِ حتّى كيفيّةِ ارتداء ملابسها!..

وفي أحد الاحتفالات التي نقيمُها عادةً في الكليةِ، جلبَ لي كلماتٍ مضحكةً وضعَها أمامي قائلاً بعصبيّةٍ "أنا أيضاً، أكتبُ الشعر"!.. عرفتُ حينها أنهُ يستحقُّ الرفقَ والمعاملةَ الحسنةَ الخاصّةَ لأنّهُ قد يتحوَّلُ إلى كائنٍ سلبيٍّ يؤذي نفسَهُ بقسوةٍ..

أمّا (لمياء) فقد قرّرت الانشغال الكلّي بدراستها دونَ وضعَ نفسها في مأزق سوء فهمٍ آخر، وفعلاً، فقد تفوّقتْ علينا جميعاً وانتقلتْ في العام التالي إلى كليّةٍ "رديفةٍ" في بغداد لتكونَ قريبةً من أهلها ومسكنها وحياتها..

فيما أحيلَ زميلنا الريفيُّ، الشابُ الذكيُّ إلى مستشفى الأمراض العقلية وقد سمعتُ من بعضِ الأصدقاء بأنّهُ توفي منذُ عدّةِ سنواتٍ في ذات المستشفى:

يالسطوة الحبِّ وغرابة أفعالِهِ، ويالهُ من أمرٍ عصيٌّ على التفسير، يأتي كيفما يشاءُ، لا وقت عنَدهُ ولا حدود!

وعدتُ من آهاتِ ذاكرتي إلى الشاطئ، إلى المرأتين، تُرى ما أمرُهما؟

هل هي الخطيئةُ الناتجةُ من جنونِ الحُبِّ؟

هل هو نذرٌ لأحدِ الأولياء جاءَ بهنّ إلى هذهِ العزلة؟

ولماذا في هذا المكان المهجور؟

بقيتُ مختبئاً حتى أنجزت المرأتانِ طقوسهما، وتلفّتنا بريبةٍ وحذرٍ في المكانِ ثمَّ انسحبنا باتجاهِ رصيفِ النهر..

ذهبتُ إلى الصخرة التي كانت تجلسُ عليها المرأتان، ما زالتْ بقايا الإثم تُثرثرُ في المكانِ ومازلتُ حائراً أبحثُ عن أثرٍ لمجهول، لا شيءَ يشيرُ إلى مفتاحٍ لما أريدُ، لذلك جلستُ على الصخرةِ، متأمّلاً انسياب النهرِ الهادئ، والضفةَ الأخرى التي تبدو لي شاهقةً من هنا، المنظرُ آسرٌ بنوارسِهِ المحتفلةِ بالطيرانِ في جميعِ الجهات، فيما تطلقُ قطعُ السجّاد المنشور على الرصيفِ الآخر ألواناً ولوحاتٍ آخّاذةً وهي تخضعُ لنشرٍ على جدارِ الرصيف الواطئ لكي تغسلَ وتجفّفَ وتباعَ نظيفةً في السوق المخصّصِ لذلك في نهاية (شارع النهر).

ولفرطِ تأمُّلي واستغراقي في الصمتِ فقد وضعتُ رأسي على ركبتيَّ ويديَّ على وجهي وشعرتُ بحذرٍ لذيذٍ أفضى إلى وسنٍ ثمَّ إغفاءةٍ مفاجئةٍ.. ثم..

رأيتُ زورقاً يتهادى في النهرِ وهو يتوجَّهُ نحوي ببطءٍ، لم أر أحداً فيهِ، الأمرُ الذي أثارَ استغرابي ودهشتي، وحينَ وقفَ الزورقُ أمامي مباشرةً، نظرتُ إلى جوفِهِ فوجدتُ صاحبي.. الرجلَ الغريب مستلقياً فيه نهضَ فجأةً وانتصبَ في حوضِ الزورق قائلاً لي:

–تعال معي.. لنَقُمْ بجولةٍ في الماء، هذا العالم الذي يضمُّ أسراراً وعجائبَ لا تاريخَ محدداً لها، لقد شاهدنا المرأتين معاً.. وصرنا شهوداً على تفاصيل ما فعلنَ، هناكَ في كلِّ يومٍ سرٌّ يضعُ أوزارَهُ هنا ليتسرّبَ مع الأمواجِ إلى مجهولٍ آمن..

أمسكَ بيدي وقادني للجلوسِ على الدكّةِ الواقعة في مقدّمةِ الزورق، وانطلقنا باتجاهِ الجسرِ تصحبُنا النوارسُ بانتظامٍ جذّابٍ غريب، شعرتُ بالهواءِ النقيِّ والندى البارد على وجهي.. وطمأنينةٍ لم أشعرْ بها طيلة حياتي.

وضعَ الرجلُ الغريبُ يدَهُ على كتفي وقال:

كلّما شعرتَ بالضيقِ، تعالَ إليَّ، في هذا المكانِ!

صحوتُ على حركةِ نورسٍ قريبٍ يداعبُ الماءَ بجناحيهِ، واكتشفتُ بأنني قد غفوتُ لأكثرَ من ساعةٍ وأنا على الصخرةِ مسترخٍ مع نسائمِ النهر العذبة وهدوء المكان الآسر.

- 11-

تفتحُ العزلـةُ أفقاً واسعاً للتأمُّلِ يمنحُ الفردَ قدرةً علـى بنـاءِ الأفكارِ واتخاذ القرارات بهدوءٍ واستقرار، كما أنَّ العزلة تساهمُ فـي تنقيـةِ بواطنِ النفس، بعرضِ أركانِ بنائها وتصوّرها وتغذية ما كانَ إيجابيّاً صالحاً منها..

هذا في الجانب المشرق من العزلة..

أمّا في الجانب المظلم –السلبي –منها، فهناك مخاطرُ جمّة وأمراض، مستعصيةً تنتجُ من الوحدةِ فيما لو ارتبطتْ بنفسٍ ضعيفةِ البناء وروحٍ واطئةٍ!

أنا شخصياً، أستطيعُ القولَ بأنني أعيشُ عزلةً أخذتْ من الجانبِ الأوّل الكثير من معطياتها، لذلك استطعتُ أنْ أؤثّثَ عالماً جميلاً ينهلُ من انفرادي ووحدتي وتعلقي بالحلمِ الغريب!..

وهيّأتُ حياتي لمفرداتِ هذهِ العزلة..

اقتنيتُ أوانيَ متنوّعةً للطعامِ والشاي مع طبّاخ نفطيٍّ صغير أستطيع بواسطتِهِ إعدادَ وجباتي البسيطة –التي لا تحتاجُ إلى مهارات طبخٍ –فضلاً عن المعدّاتِ الأخرى التي لا بُدَّ منها وهي متواضعةً بالتأكيد.

هذهِ المفرداتُ البسيطةُ جعلتني أقضي معظمَ أوقاتي بينَ جدرانِ غرفتي في الفندق للقراءة والتأمُّلِ والكتابةِ أحياناً..

ولم أفلح حتّى الآن بفكِّ شفراتِ اللُغزِ الذي بدأ ينمو معي ويدخلُ في صُلبِ مكوّناتي النفسيّةِ..

وبعدَ حُلمي الأخير ومشاهدتي قبلَهُ للمرأتين، وأنا أتردّدُ في الذهاب إلى تلكَ البقعةِ المنسيةِ في العالم رغمَ وقوعِها في قلب الحياة!.. وسببُ تردُّدي الحقيقيّ يكمنُ في وحشةِ المكانِ وتوقُّعِ المفاجآت التي لا تسرُّ فيه وبالتالي عدمِ استطاعتي فعل أيِّ شيءٍ تجاه أيِّ حادثٍ سيّما وإنني قد سمعتُ بأنَّ بعضاً من المتسكعين والشاذين يرتادونَ مثلَ هذهِ الأماكن المهجورة للابتعاد عن أعين الناس وقضاء حاجياتهم وأداء جلساتهم التي يسودُ فيها أردأ أنواع الخمور المغشوشة وبعد انتهائهم من آخرِ قطرةٍ من احتفالهم بها يبدؤونَ بالشجارِ الذي قد يصلُ إلى القتلِ فيما بينهم بسببِ هيمنةِ السُكرِ على رؤوسهم وضياع وعيهم وتركيزهم..

ما عليَّ سوى الانتظار ومتابعة أحلامي التي تزدادُ إثارةً في انعكاسها على الواقع، وتجسُّدِها لي بشكلٍ صَعُبَ عليَّ تحليلهُ..

قبلَ يومين شاهدتُ في حُلمي صديقَ طفولتي (قصي) الذي لم ألتقهِ لمدّةٍ زادت على الاثني عشر عاماً، وفي صباحِ اليومِ التالي للحلمِ، وأنا أتمشى في هرج (الباب الشرقي) صادفتُهُ وجهاً لوجهٍ، سلّمتُ عليهِ فردَّ عليَّ السلامَ متطلّعاً بوجهي بعمقٍ ثمَّ أطلقَ صرخةً صغيرةً معبّرة عن الدهشة والفرح عندما عرفني..

تحاضنّنا في الشارع، وانهال بيننا وابلُ التعبير عن الأشواق والأسئلة، وأعلمتُهُ بأنني متيقنٌ من أنني سأراهُ هذا اليوم!

فاعتبرَ هذا اليقينَ الغريب جزءاً من مداعباتِ معَهُ وتركتُهُ لهذهِ القناعة..

وهناك الكثيرُ من الأشخاص والأماكنِ والأحداث ممّا أراها في (حلم الليل) أجدُها في (واقع النهار)..

مرّةً حيّرني حلمٌ غريبٌ بأجوائِهِ وأشخاصِهِ وأماكنِهِ وأحداثِهِ، ضجيجٌ في كلِّ شيءٍ، هذا يغنّي، وذاك يركضُ وآخرُ يحملُ مسدساً ويركضُ خلفَ امرأةٍ هاربةٍ منهُ!

وبعد استيقاظي استغربتُ هذا الحلمُ وتحيّرتُ في دلالاتِهِ، التي تشيرُ إلى الضياعِ والفوضى.. ولكنني ضحكتُ من أعماقي في اليوم التالي بعد أنْ وقعتُ على معادِلِهِ الواقعيّ حينَ دخلتُ بمصادفةٍ محضةٍ إلى "سينما سميراميس" في بغداد لمشاهدة فيلم المغامرات الشهيرة (إنديانا جونز)!!

وتكرّرتْ الأحلام التي أشعرتني بلذّةِ اكتشافِ المجهول! أو فكّ الرموز التي

يطلقُها الحلم والتي حقّقتْ لي فلسفةً خاصّةً في الحياة استطعتُ من خلالِها أنْ أؤثثَ قناعاتٍ مستقاةً من عمق التجربةِ لا من القراءات الباردة التي تأتي دائماً بعموميّات لا تستطيعُ الإحاطة بكاملِ التصوّرات الخاصّة التي تندرجُ حالتي الغريبة التي أعيشُها ضمنها!

هذهِ القناعاتُ الخاصّة التي حققتُها وفّرتْ لي رؤيةً ذاتيةً في رصدِ الأشياء وتسميتها مع الإيمان الكُلّي بالممكناتِ الخارجة عن تصوّرنا أو حتّى مدياتِ خيالاتِنا ما يطلقُ عليها بـ (الخارقة) التي هي خارجَ المألوف حتماً..

لم يَعُد الرجلُ الغريبُ لغزاً محيِّراً لي!... أو هكذا شئتُ أن يكونَ، بسبب الإحالات الغرائبيّة –التي صارتْ مألوفةً –تلك التي يوفّرها لي (الحلمُ).. حيثُ اقتنعتُ تماماً بفكرةِ (لعبة الزمن) تلك التي ترتّبتْ على الحاضر المعيش المنطلق من الماضي المنصرم والمؤدّي إلى المستقبل المجهول...!

تُرى ماذا سيحدثُ لو تداخلتْ هذهِ الأزمانُ، وسبقَ المستقبلُ الحاضرَ، أو الماضي أو حدثَ تداخل، بين زمنين معاً في آنٍ واحدٍ وضمنَ مدركاتِ وعي خاص؟!

تُرى هل خضتُ في عبثٍ وجوديٍّ ناتجٍ من إحساسي بالحيرةِ والتعب، أم أنَّ إشارات الأحلام لحوادث (س) تحدثُ في المستقبل وإن كانَ قريباً هي التي تجعلني أجترحُ مثلَ هذا التصوُّرِ الغريب؟

لا أدري ربمّا هي مصادفات أو رؤىً يفرضُها الإجهادُ النفسيُّ.. المهم.. أنّها حقيقيةً وغريبةً في الآن ذاتِهِ!

أتذكَّرُ أيّامَ قراءاتي الأولى –المبكّرة –حيثُ كنتُ تلميذاً في الصف "الثالث المتوسط" وكنتُ منهمكاً بقراءة رواية (فيكتور هيجو) الشهيرة (البؤساء) وكان بطلها(جان فالجان) مهيمناً على نظرتي للأشياء من خلال تأثُّري بمغامراتِهِ وتشعُّب حياتِهِ وعمق أفكارِهِ الخاصة..

وفي إحدى الليالي (حلمتُ) بأنني مع شخصٍ يسيرُ إلى جانبي وتسلّقنا سوراً عالياً ثمَّ ذهبنا مشياً إلى مدينة من بيوتٍ متشابهةِ الأشكال وتقطعُها شوارعُ نظيفة وجميلة.. وشاهدنا من بعيدٍ منظرَ فوضى وتجمُّعاً سكّانياً حول أحد البيوت، ثم مرَّ بجوارِنا طفل، سارعتُ بسؤالِهِ:

-ماذا يحدثُ هناك؟

فأجابني: لقد دخل المغامر (جان فالجان) إلى أحد البيوت، وأنتَ تعلمُ بأنّهُ هارب من العدالةِ فتجمَّعَ الناسُ حولَ هذا البيت واستدعوا الشرطة للقبضِ عليه!

بعد ذلك شاهدنا (جان فالجان) مُقاداً من قبل شرطين لأخذِهِ إلى السجن!... وانتهى الحلم..

في الصباحِ ذهبتُ كعادتي إلى المدرسة، وقبلَ بداية الدرس الأخير أشارَ عليَّ صديقي الأقرب "قصي" بأن نترك الدرس الثقيل والمزعج.. وأتفقنا على مغادرة المدرسة، فتسلقَنا سياجها العالي، واقترحَ عليَّ "قصي" أنْ نذهبَ إلى محلّتهم وهي "دور شركة النفط الوطنية" في "الموفقية" [2] التي تقعُ إلى الغرب من محلة "الجمهورية".

وتمتازُ دور الشركة بتشابُهِ بيوتِها ونظافة وجمال شوارعها وأزقّتها.. وأثناء مسيرنا في أحد الشوارع شاهدنا من بعيدٍ مشهدَ فوضى وتجمّعاً سكانياً حول أحد البيوت، ثمَّ مرَّ بجوار طفلٌ سألتُهُ:

-ماذا يحدثُ هناك؟

أجابني: -لقد دخلَ "عبّود الشقي" إلى أحد البيوت وأنت تعلمُ بأنَّ عبوداً هاربٌ من العدالةِ، فتجمَّعَ الناسُ حول ذلك البيت واستدعوا الشرطةَ للقبضِ عليه..

بعد قليلٍ شاهدنا "عبّود الشقي" مُقاداً من قبل شرطيين لأخذهِ إلى السجن!

شعرتُ بهزّةٍ شديدة في بدني إثرَ الدهشةِ الصاعقة وأنا أتذكّرُ تطابقَ الحلم الغريب مع ما حدثَ لاحقاً..

قلتُ لصديقي قصي:

-هل تعلم بأنني شاهدتُ هذهِ الحادثة؟!

فأجابني ضاحكاً:

-في أيِّ فيلمٍ سخيفٍ يا تُرى؟!

أجبتُهُ بارتباكٍ وشرود ذهن: في الحلمِ.. واللهِ.. وقصصتُ عليهِ الحلم، فراحَ في فصلِ ضحكٍ طويلٍ..

---

[2] *الموفقية الجمهورية: من المحلاّت الشعبية المعروفة في البصرة -جنوب العراق.*

في ذلك الحين لم أُعطِ للأمرِ اهتماماً، هو حلمٌ على أيةِ حالٍ وأنا في عمرٍ غضٍّ في كُلِّ شيء..

وتكرّرتْ معي أحلام متباعدةً أشارتْ أيضاً إلى حوادثَ وأشخاصٍ وأماكن.. لكنني لم أتعاملْ معها باهتمامٍ..

أمّا.. بعدَ هذه السنوات الطويلةِ، فقد أصبحَ الأمرُ عندي مختلفاً ويصبُّ في بُعدٍ آخر.. لا سيمّا بعد أنْ اتّسعتْ قراءاتي وتجاربي في الحياةِ وذقتُ مراراتٍ متنوّعةً وتعلّمتُ الكثيرَ ومازلتُ غارقاً في القراءةِ والبحث والتعلُّم من أجلِ الوصولِ إلى إجاباتٍ شافيةٍ حولَ تناسُلِ الأسئلةِ الكبيرةِ في الوجود.. والحياة... وما يُسمّى بـ (الخوارق).

-12-

تطوي الأيّامُ أوراقَها، تصبحُ الفسيلةُ نخلةً، يغدو البرعمُ غصناً، تسَقطُ أوراقٌ، وتذبلُ زهورٌ.. الأشياءُ الصغيرةُ تكبرُ، والكبيرةُ تذبلُ، وأنا في عربةٍ تهتزُّ، في القطارِ النازلِ إلى الجنوب..

أجلسُ متأمّلاً المساحاتِ الصحراويّةَ الممتدّة على طولِ الطريق بين الناصرية والبصرة، والوقتُ في بدايةِ الصباحِ، البردُ قارصٌ، والنعاسُ يتمطّى على وجهي، نمتُ ليلةً مليئةً بالانفجارات!

ذلك إنني في كلِّ هزّةٍ من اهتزازات القطار أتخيَّلُ انفجاراً أصحو فَزِعاً على أثرِهِ.

لا أحدَ معي في غرفةِ المنام التي حجزتُ أحدَ أسرَّتها، ربمَّا انسلَّ بهدوءٍ الشخصُ الصامتُ الذي حجزَ معي السريرَ الآخر في ذاتِ الغرفة، إنهُ منذُ أنْ دخلَ الغرفةَ في بدايةِ الرحلةِ من بغداد وأدائه السلام والتحية وكلمات المجاملة الآلية المعروفة، لم يتحدّثْ بأية جملةٍ حتّى مغادرته بهدوءٍ وصمتٍ في إحدى المحطّات الفاصلة بين السماوةِ والناصريّة..

والسببُ في صمتِهِ أنا طبعاً!، لأنني سرعانَ ما تمدّدتُ على سريري –لحظة تحرُّك القطار –تناولتُ كتاباً من حقيبتي غرقتُ فيه حتّى نمتُ.. وكلّما أنهضُ فزعاً بسبب اهتزازات القطار الدائمة أراهُ راحلاً في غفوةٍ عميقةٍ على سريره..

لذلكَ أحسستُ بوحدتي اللذيذة حتّى الآن وأنا أشاهدُ المنظرَ المؤثر من خلال النافذةِ وهو يعرضُ عليَّ الكثيرَ من أشلاءِ الحكايا التي أعرفُها عن هذهِ المناطقِ البعيدةِ عن شبقِ الحياة!

كلُّ شيء يشيرُ إلى بقايا..

فهذهِ بقايا بيتٍ..

وتلك بقايا محطّةٍ..

وهذهِ بقايا عربة

وتلك بقايا إحدى المعاركِ الضارية..

وفي البعيد، تصرخُ النيرانُ بأعلى بوحها معلنةً عن مواقعِ الشركات المعروفة التي تعمل في تغذيةِ إضرامها، شركات النفط والغاز المقامة في عمقِ الصحراء..

مرّةً عملتُ في إحدى تلك الشركات!

يومَ كنتُ طالباً في الإعدادية، وفي العطلةِ الصيفيّةِ، أنهضُ مع آذانِ الفجرِ، وأتوجَّهُ إلى الجامع القريبِ من بيتنا حيثُ أجتمعُ مع عددٍ من العمالِ الذينَ لا أعرف ملامحَهم بسببِ الظلام وبسببِ تلفّعهِم باليشماغات أثناء العمل.. ننتظرُ (الباص الخشبيّ) وندخلُ فيهِ حاملين أمتعتنا البسيطة من الغداء..

ويبدأ الباصُ معنا حبوَهُ في الصحراء باتجاهِ شركة "بكتل" الأجنبية..

ونصلُ في لثغةِ الصباح الأولى إلى موقع العمل، بعد أنْ غفونا بعمقٍ في السيارة العجوز المهددّة دائماً بالعطل!..

–انهضوا.. لقد وصلنا..

يصيحُ السائقُ الكهلُ بانزعاجٍ لنتمطّى جميعاً وننزلُ بكسلٍ وبلا حماسٍ إلى موقعِ العمل..

عملُنا هو تنظيفُ السواقي المخصّصة للأنابيب والمحفورة حديثاً من تسرُّب الرملِ إليها، إذْ نقومُ بنقلِ الرملِ بجرّافاتٍ يدويّةٍ.. إلى جوانب الحفر!

وبمـا إنَّ العواصـفَ الرمليّـة دائمـة الهبـوب فقـد أصـبحت اليشـماغات التـي تغطّـي وجوهنـا ورؤوسـنا والأهم مـن ذلـك أنوفنـا كـي لا تمتلـئَ بالرمـلِ، علامـات تميّزنـا عن العاملين الأجانب الذينَ وضعوا الكمّامات البيض الأنيقة على أنوفهم وأفواههم وهم يعملون في تنظيم الأنابيب لإنجاز مشروعٍ للغاز السائل –هكذا قالوا لنا–!..

عملُنا شاقٌ بالتأكيد وهو يستنزفُ قوانا لأنّنا في فترتي الاستراحة الخاصتين بـالفطور والغداء، نسرعُ فـي تنـاولِ وجباتنـا المتواضـعة البـاردة لنتمدّدَ علـى الرمـلِ حيـثُ ننـامُ فـي الفتـرةِ المتبقيـةِ مـن وقت الاسـتراحة وعنـدما ننهـي العمـلَ ويحملُنـا البـاصُ الخشبيُّ ثانيةً عائداً بنا إلى المدينـة في الظـلامِ أيضـاً نقضـي وقت الرحلـةِ بالنوم وحالما نصل إلى بيوتنا، نستحمُّ سريعاً ونتعشّى سريعاً ثم بأقصـى سرعةٍ إلى صديقِنا الآمن (النوم)!..

فـي أيّـامِ العمـلِ الشـاقِّ هذهِ كانت أحلامـي تعبِّرُ عن فوضـى واضـطرابٍ فـي الصور والأشكال والأحداث نتيجة التعب الكبير الذي يجتاحُ جسدي وذهني معاً.

واستمرَّ إيقاعُ العملِ هذا طيلةَ العطلةِ الصيفيّةِ، لتشـهَد بدايةُ الدوام في السنة الدراسية الجديدة ارتدائي ملابسَ جديدة وتمكُّنـي مـن ادّخـارِ مبلـغ جيّدٍ فـي حينـهِ مكنني من اقتناءِ حاجاتي الأساسيّة مع اقتناء تذكرةِ سفرٍ في القطـار الصـاعد من البصرة إلى بغداد وقضـاء أيّامٍ مسترخيةٍ حافلـةٍ في العاصـمةِ بين المكتبـاتِ ودور السينما مع حضور إحدى مباريات (المنتخب الوطني) في ملعبِ الشعب الدولي وتشجيع نجومِـهِ مباشرةً، كـان السفر فـي القطـار فـي تلكَ الفترة، يمثِّلُ متعةً كبيرةً لأنَهُ متكاملُ الخدمات والمسافرونَ فيه على درجةٍ عاليةٍ من الأهميّةِ والأناقة!

أمّا الآن فالسفرُ في القطارِ بلا خدماتٍ ومسافروهُ جلُّهم من الفقراءِ والمعوزين والعسـكريين الملتحقـين بوحـداتهم، والنافـذة التـي أطللـتُ منهـا بوجـهٍ حيـويٍّ مبتسـمٍ طريّ على مشهدٍ من فرحٍ انطلقَ من نظرة عيني إليه أوّلَ مّرةٍ..

هـي ذاتُ النافذةِ التـي أطلُّ منها الآن بعدَ خمسـة وعشرين عامـاً، علـى نفسِ المشهدِ بوجهٍ عليهِ مسحةُ التعب والحزنِ والشرود..

الشجرةُ ذاتُها أمام المنزلِ الوحيد في الصحراء، المشهدُ الذي كانَ يمثِّل لي رؤيةً حالمةً في السابق، يرسمُ لي الآنَ هاجسَ الوحشةِ والضياعِ وفقدانِ شروطِ الحياةِ وسيمائها..

يا للأشياءِ كم تتبدّل؟!

ويا لنفوسِنا كيفَ تتعاملُ مع الأشياءِ بعد أنْ تطعنها السنواتُ بتجاربها؟..

سفري إلى البصرةِ هذهِ المرّة بقصدِ "دائرة التجنيد".. في التجنيد يجتمعُ أبناءُ المواليد الموحّدة، بانتظارِ كُتبِ السوقِ إلى الوحدات..

هذهِ المرّة، ستكونُ الخدمةُ شهراً واحداً، لا جبهات، ولا انقطاع، ننتظرُ تحتَ الشمسِ محتشدينَ نتحدّثُ عن تخرُّصاتنا وعن آخرِ الإشاعاتِ التي سمعناها حولَ خطّة سوقِ مواليدنا..

وتظهرُ الكتبُ منفردةً..

جنديٌّ نحيلٌ يفتحُ البابَ الموصَد بالسلاسل، وينادي على الأسماءِ.. واحداً... واحداً.. يسلِّمُهُ كتابَ السوقِ ودفتر الخدمة العسكرّية المؤشّر..

لا حوار.. ولا أسئلة.. ضابطُ التجنيد متعبٌ من العمل والتواقيع وسيولِ الإجابات..

و... تجربةٌ جديدةٌ في وحدةٍ ثابتةٍ وضعتْ لنا جدولَ تدريبٍ مكثّفاً، سبقتْهُ محاضرة لأمرِ الوحدةِ يشيرُ فيها إلى تجنُّبِ الوساطات وإنهاء هذا الشهرِ بخيرٍ..

ومعَ هذا كُنّا في فصيلنا الصغير نسمعُ بأسماءٍ دونَ أن نرى أصحابها، ويُستدعى البعضُ منّا في بدايةِ الأسبوع ولا نراهُ ثانيةً إلا في منتصفِ الأسبوع الثاني!

تعوّدتُ على النهوضِ في الخامسةِ فجراً.. للحلاقةِ والاستحمام وارتداء الملابس العسكرية والذهاب إلى وحدتي في معسكر الرشيد..

ياه.. أخيراً معسكر الرشيد! الذي كانَ حُلماً لي أيّامَ كنتُ في سعير الجبهات..

لم أكنْ حينها أصدِّقُ أنْ أداومَ بشكلٍ طبيعيٍّ في وحدة لا نشكو فيها من

قصفٍ مُعادٍ أو احتمالِ تعرُّضٍ أو هجومٍ يشنُّهُ الأعداءُ ضدَّنا أو رعب انتقالٍ من قاطعٍ إلى قاطعٍ آخر..

هاهو معسكر الرشيد وهاأنذا أسبحُ في الظلامِ في طريقي إليهِ، سياراتُ (الباب الشرقي) الضخمة الممتلئة حدَّ ميلها إلى جهةٍ واحدةٍ.. وبعد (الباب الشرقي) إلى السيارات الكبيرة المؤدّية إلى المعسكر، حتّى باب النظام، وساحة العرض الصباحيّ، والوقوف بالاستعداد وقراءة الأسماء وتقديم الموجود وتنفيذ الإيعازات، والهرولة الصباحيّة، والتدريب البدني، ثمَّ التوجُّه إلى الدرس اليوميّ..

وهكذا ينقضي الشهرُ.. لأسَرَّح..

ويأتي شهرٌ آخر..

وأنا أنتظرُ زيارةَ الرجل، لا سيّما بعد أن تغيّرتْ بعضٌ من تفاصيلِ حياتي، وخضتُ تجربة الجيش ثانيةً رغمَ إنها كانت تجربةً باردةً هذهِ المرّة، إلاّ أنّها أخرجتني عن إطار حياتي وأصبحتُ مشغولاً بيوميّاتها حتى إنني شعرتُ بشوقٍ كبيرٍ للأماكنِ التي تعرَّفتُ بها من خلال صديقي الرجل!

شعرتُ بلهفةٍ للذهابِ إلى النهرِ والجلوسِ على جرفِهِ وتأمُّلِ المدينةِ من جانبها الآخر، اشتقتُ للنوارسِ والصيّادينَ والمفاجآت..

وفي فجرِ إحدى الليالي التي لم أستطعْ النومَ خلالها، نهضتُ من فراشي، وارتديتُ ملابسي العسكرية –رغم إنني تسرَّحتُ من الجيش –وخرجتُ من الفندقِ وسطَ دهشةِ واستغرابِ أصحابِهِ الخافرين..

–إلى أينَ بهذهِ الملابس العسكرية؟

سألني أحدُهم بتعجُّبٍ، فأجبتُهُ ببرودٍ: إلى النهرِ، والمدينة واصطياد الشمسِ قبلَ أوانِها!..

–ثم ردّدتُ مع نفسي –.. إلى صديقي الذي ينتظرُني في زورقٍ يتهادى في الماء.. إلى حوريّات النهرِ، وطلاسمِ المختبئات، إلى القرابين والنذور التي يأخذُها التيارُ الهادئُ إلى الجنوب..

خرجتُ هائماً!

مررتُ بالمتسكّعين النائمينَ في الزوايا المهملة.. والكلاب والقطط وبقايا ليل المدينة..

تأمّلتُ تمثالَ (الرصافي) فتخيّلتُهُ يضحكُ وهو يراقبُ من عليائِهِ جسرَ الشهداءِ والجامعَ المحاذي لهُ والبنايات القديمة والحديثة التي تنتصبُ على جانبيهِ..

استمرّتْ خطواتي حثيثةً باتجاهِ الجسر، وعبرتُهُ مستمتعاً بنسائمِ الفجرِ العذبة، نزلتُ إلى الجانبِ الثاني.. وانحرفتُ يساراً، تجاوزتُ زوارقَ وآلياتِ العبّارين والصيّادينَ الذين لم يستيقظوا بعد..

ووصلتُ إلى مدخلِ الملجأ العجيب المؤدي إلى النهر والذي اكتشفتُهُ سابقاً..

نزلتُ بهدوءٍ.. فالظلامُ ما زال سائداً..

وصلتُ قريباً من الجرفِ

سمعتُ حركةً في الماء، فانزويتُ بينَ أعوادِ القصب، شاهدتً نورساً كبيراً يداعبُ الماء، ما أن أحسَّ بوجودي حتّى حلّق في الفضاءِ فوقَ النهر..

توجّهتُ إلى الصخرةِ الثابتة على جرفِ الشاطئ، مددتُ يديَّ وأخذتُ قليلاً من الماءِ نثرتُهُ على وجهي، رفعتُ طرفيَّ البنطلون الكاكيّ وكففتهما حتّى ركبتيَّ ووضعتُ قدميَّ في الماءِ البارد، شعرتُ بلذّةٍ واسترخاءٍ، وبعد لحظاتٍ غفوتُ إغفاءةً عميقةً..

ثمَّ شعرتُ –كما أوّل مرّةٍ –بزورقٍ ينسابُ باتجاهي رفعتُ عينيَّ فشاهدتُ الرجلَ مبتسماً وهو يجلسُ على الدكّةِ البعيدة للزورق.. ألقى عليَّ التحيّةَ ورفعَ يدَهُ اليمنى متمتماً بكلماتٍ لم أتبيَّنْ ماهيّتَها..

قفزتُ سريعاً وصعدتُ إلى الزورقِ وجلستُ على دكّتِهِ القريبةِ في الجهةِ المقابلةِ التي يجلسُ عليها الرجل، الذي سحبَ مجذافاً أبيضَ وحرّكَ بهِ الماءَ فانسابَ الزورقُ بهدوءٍ مع تيار الماء..

نظرتُ حولي، شاهدتُ عشراتِ الأواني الألمنيوميّة (الصواني) المليئة بالآسِ والشموع المتوهجة وقطع الحلوى والحنّاء والطين وهي تحيطُ بالزورقِ الذي يحملُنا..

مررنا من تحت الجسر، واستمَّر الزورقُ متهادياً في رحلةٍ سحريّةٍ غريبةٍ..

مددتُ يدي إلى الماءِ وغرفتُ قليلاً منهُ غسلتُ بهِ وجهي، استيقظتُ فجأةً..

لا... ربمّا لم استيقظْ!... فهاأنذا مازلتُ في الزورقِ، وهاهو الرجلُ يبتسمُ بوجهي، وقد أدركَ فيضَ أسئلتي..

فيما خضعتُ للصمتِ، وأنا أتأمَّلُ هدوءَ النهر وانسيابَ الزورقِ، والنوارس المحلّقة بفرحٍ حولَنا.. والمدينة التي تنأى تفاصيلُها عنّي.. حتّى تلاشت كليّاً!

أدركتُ حينها عدمَ حاجتي لإيضاحٍ أو لتوجيهِ أسئلةٍ أو حتّى.. لكلامٍ...

مجرد كلام!

❀ ❀ ❀

المؤلف في سطور:

*منذر عبد الحر من مواليد البصرة في جنوب العراق في 13 /5/ 1961.

*بكالوريوس إعلام –جامعة بغداد.

*بدأ الكتابة والنشر نهاية السبعينيات.

*صدرت مجموعته الشعرية الأولى عام 1992 وحملت عنوان (قلادة الأخطاء)

*صدرت مجموعته الشعرية الثانية عام 1997 وحملت عنوان (تمرين في النسيان) وحصلت على جائزة الدولة للإبداع في الشعر في نفس العام.

*صدرت مجموعته الشعرية الثالثة بطبعتين الأولى في بغداد وحملت عنوان (قرابين) والثانية في الأرض المحتلة فلسطين وحملت عنوان (قرابين العش الذهبي) /عام 2000.

*صدرت مجموعته الشعرية الرابعة في عمّان –عن دار الكرمل للنشر عام 2001 وحملت عنوان (شجن).

*له مسرحيتان من المونودراما الأولى بعنوان (أعشاش) عام 1995 والثانية بعنوان (غرقى) عام 1996 (وقد شاركت هاتان المسرحيتان في مهرجانات السينما والمسرح في بغداد).

*له عدد من البحوث والدراسات والكتابات النقدية حول الأدب الحديث نشرت في الصحف والمجلاّت الأدبية المحلية والعربية..

*كتبت عنه عشرات الدراسات النقديّة لنقّادٍ عراقيين وعرب..

*عضو المكتب التنفيذي للاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق –أمين الشؤون الثقافية لعدّة دورات من عام 1992.

*يعمل في الصحافة، حيثُ عمل مسؤولاً للقسم الثقافي في جريدة القادسية، ورئيس تحرير جريدة (الكهف) الثقافية.

❑❑❑